
اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
مهند عميرة
تحليل الفكر اليهودي
دار المعارف
تأسست ١٨٩٠



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
[٨١٨]

تحليل الفكر اليهودي

Analysis of the Judaic Thought



رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

سلسلة اقرأ

صدر العدد الأول

سنة ١٩٤٣

تصميم الغلاف

غادة نبيل

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - جمهورية مصر العربية

عَميرة، مهنَّد محمَّد.

تحليــل الفكر اليهودى = Analysis of the Judaic Thought / مهنَّد محمَّد عَميرة.

ط 1 – القاهرة: دار المعارف 2021.

164 ص، 16.5 سم (إقرأ رقم 818)

تدمك 3 9144 02 977 978

1 - اليهودية والأدب

2 - الأدب المقارن

3 – اليهود – حضارة

4 – الشعراء اليهود

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 809.9569

رقم الإيداع: 11664/ 2021

رقم أمر التشغيل: 1/2021/41

رقم الكونجرس: 5 - 841279 - 01 - 2

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء

إلى أبي وأمي،

وجُدران «مخيَّم النَّصر»

التي لم تتوقَّفْ - يومًا - عنْ تذكيرِنا بأنَّ

«فلسطين عربيَّة»

مهنَّد محمَّد عَميرة

تحليل الفكر اليهودي

Analysis of the Judaic Thought

الطبعة الأولى
يونيو ٢٠٢١م



اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين



دار المعارف

أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

רנני ר יהיו ספרי קדושים
רפררסר יהיו ספרי ערבים
(דונש בן לברט)

اجعَل الكِتابَ المُقَدّسَ عَدَنَكَ
وَكُتبَ العَربِ بُسْتَانَكَ
(دوناش بن لبراط)

مقدمة

ورد إلى علمي مؤخرًا وجود تمثال لـ «يهوذا هاليفي» في أحد متاحف مدينة «قيسارية» الفلسطينية المحتلة، وهي معلومة مثيرة للانتباه، تستحق التأمل والتفكير، والتساؤلَ أيضًا: لماذا تحتفي الدولة اليهودية بهاليفي؟ وتصنع له تمثالًا؟ وكيف تبرر الدولة اليهودية علاقتها بشاعر يهودي عاش في عدة مدن أندلسية - تحت الحكم الإسلامي - في القرنين الحادي عشر والثاني عشر؟

تلقي هذه الأسئلة الضوء بشكل مباشر على الفكر اليهودي المعاصر، وعلى قراءاته وتفسيراته للأحداث التاريخية المتعلقة بالمجتمعات اليهودية المنتشرة في عدة أنحاء من العالم، والإجابة عنها تعني كل من يسعى لمعرفة آلية بناء اليهود - المحتلين فلسطين - لتصوراتهم الفكرية، وتشكيل معتقداتهم، وكيفية إدراكهم للوضع الراهن بكل أبعاده.. الدينية والتاريخية والجغرافية والسياسية والأخلاقية

والقانونية، كما تعني هذه الإجابات كلَّ من تشغله المسألة الفلسطينية من: مسلمين ومسيحيين ويهود وفلسطينيين وعرب ومؤرخين وحقوقيين وأكاديميين، وغيرهم ممن يسعى لإعادة هيكلة المصطلحات المرتبطة بالديانة اليهودية،وهو الأمر الذي لا يتم إلا بتفكيك تلك المصطلحات، ونزعها من دلالتها، ثم تحليلها،ومعرفة حدودها،وإعادة التفكير فيها بشكلها اللغوي المعجمي، واستبعاد المفاهيم المسبقة والأولية بخصوصها،ثم إعادة تركيب دلالات جديدة مستمدَّة من الدراسات في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة، مثل: علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ والجغرافيا والفلسفة ومقارنة الأديان وغيرها من العلوم.

ولا بد لتلك الدلالات الجديدة المركَبة أن تبتعد عن العاطفة والحماسة، فحاجة الأكاديميا العربية إلى خطاب تحليلي وتفسيري أهم من حاجتها إلى خطابات تعبوية أو قانونية أو أخلاقية، وهذا لا ينكر فضل تلك الخطابات، ولكنه يضعها في غير مكانها، فالخطاب التعبوي يبدو مناسبًا لساحات الحروب، أو حين تدعو الحاجة للمزيد من الحماسة،

والخطاب القانوني مكانه في المحاكم الدولية، وفي كليات الحقوق، والخطاب الأخلاقي هو انعكاس للحالة العاطفية اللاشعورية تجاه المسألة الفلسطينية،وقد يكون مناسبًا أكثر عند إثارة العوام الساخطين، وكل خطاب من تلك الخطابات هو جندي مسخَّر في مكانه، والخلط بين هذه الأماكن - كوضع الأخلاقي في الأكاديميا، أو التحليلي عند مخاطبة الجماهير في الحرب - هو خطأ استراتيجي، يضعف طرفًا على حساب آخر، كما أن الخطابات التعبوية والقانونية والأخلاقية تملأ الأكاديميا والميديا، والشعوب العربية ليست بحاجة لها لأنها مشبعة فعلًا بمفاهيمها، على عكس الخطاب التحليلي الذي يكاد يكون غير موجود عند تناول المسألة الفلسطينية.

وإجابة الأسئلة الخاصة بارتباط يهوذا هاليفي بالدولة اليهودية تعني المجتمع الأدبي بشكل خاص أيضًا، وذلك لأنها تشير إلى عصر ثري من عصور الشعر العربي، وهو العصر الأندلسي كما يسميه المؤرخون،وتناقش تلك الأسئلة أيضًا العلاقات بين الشعر العربي والشعر العبري في ذلك العصر، وتفتح آفاقًا للباحثين في الأدب المقارن، وهي امتداد

لفكرة تأثر أدب الحضارة الأضعف بأدب الحضارة الأقوى – بغض النظر عن جودة أي منهما–وتتمة لقضية تأثير صنعة الشعر العربي على أشعار اللغات الأخرى، والتي ناقشناها في كتابنا «صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارةوالثقافة»[1].

وقد جاء هذا الكتاب ليحاول العثور على تفسيرلتلك العلاقة المفتَرَضة بين يهوذا هاليفي والدولة اليهودية، ومن أجل هذا الهدف يأتي الباب الأول في الكتاب كدراسة تحليلية لنصوص الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica من أجل استقراء الفكر الذي تقدمه، ومحاولة التعرف على ملامحه، وقد أوصلنا استقراء هذا الفكر لنتيجة دعتنا إلى دراسة حالة الشعر العبري في الأندلس، وهو ما كان في الباب الثاني من هذا الكتاب.

---

(١) انظر كتابنا «صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارة والثقافة» (طبعة دار المعارف)، ص ٣٤.

الباب الأول
استقراء الفكر اليهودي

يورد «قاموس أكسفورد» الموسوعةَ على أنها: «كلمة لاتينية تشير إلى كتاب أو مجموعة من الكتب التي تعطي معلومات عن عدة مواضيع أو عدة جوانب من موضوع واحد، وغالبًا يتم ترتيب محتوياتها أبجديًا»، وبالتالي فإن الموسوعة اليهودية هي مجموعة من الكتب التي تقدم معلومات مرجعية عن مواضيع مرتبطة بالديانة اليهودية، وقد بدأ ظهور الموسوعات اليهودية - بلغات مختلفة - بدءًا من منتصف القرن الثامن عشر، حيث نُشِرَت الموسوعة اليهوديةلأول مرة بالإيطالية على يد الحاخام «إسحق لامبرونتي»، ثم نُشرَت باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٦م، حيث صدرت الموسوعة اليهودية Jewish Encyclopedia، ثم توالى صدور الموسوعات المختلفة، والتي غالبًا ما كانت تغطي جانبًا واحدًا فقط أو بضعة جوانب معدودة متعلقة

بالديانــة اليهوديــة، حتــى ظهــور الموســوعة اليهودية Encyclopedia Judaica، والــتي نُشــرَت طبعتُها الأولى عام ١٩٧٢م، لتشمل كل ما يخص المجتمعات اليهودية -في كل الأماكــن المعروفة من العالم - دينيًا واجتماعيًا وتاريخيًا وجغرافيًــا وسياســيًا وأنثروبولوجيًا وأدبيًــا وعلميًا، مثل: ملخصات لحياة أفراد مؤثرين، وتاريخ مجتمعات عاشــت في مدن مختلفة، ومصطلحات دينية من العهد القديم، ونبذة عن الحركة الصهيونية، كما ورد في الموسوعة تضمين لأفراد غير يهود أيضًا ربطتهم علاقة مباشــرة باليهود،وهذه الموســوعة اليهودية - بطبعتهــا الثانية الصادرة عام ٢٠٠٧م - مكونة من اثنين وعشرين جزءًا في ١٧٥٢١ صفحة.

وقد قمنا باختيار الموســوعة اليهودية Encyclopedia Judaica لاســتقراء الفكــر اليهــودي لعدة أســباب وهي: أنها شملت كل الجوانــب المتعلقة باليهودية - ومن ضمنها الصهيونية - ولأنها مكتوبة بعناية أهم الأكاديميين اليهود، لذلــك فهي تعكــس فكر الصفــوة، وتخاطــب الأكاديميين والمثقفين، ولأنها تلخيص للموسوعات التي سبقتها وإضافة

عليها، كما أنها لاقت استحسانًا أكاديميًا كبيرًا، وحازت على العديد من الجوائز، مثل «وسام دارتموث» من «جمعية المكتبات الأمريكية»، ونظرًا لضخامة حجم الموسوعة، فقد اخترنا الجزء الأول منها فقط كعينة عشوائية بسيطة، حيث لا يختلف الجزء الأول عن غيره من الأجزاء - من ناحية الموضوعات والتقديم والعرض - إلا باحتوائه مقدمة الموسوعة والمساهمين في إعدادها، وقد تجنبنا اختيار نصوص عشوائية من أجزاء مختلفة من الموسوعة لنتفادى مسألة التحيز وانتقاء النصوص، لذلك فالنصوص التي سيتم عرضها واستقرائها هي نصوص من الجزء الأول فقط.

النصوص

ورد في الموسوعة[1] ذكرُ شخصية تُدعى «هارون بن بطاش»، وتعرِّف الموسوعة هارونَ هذا بأنه وزير وكاتب مغربي يهودي عاش في القرن الخامس عشر للميلاد، وهو

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢١٢.

وزير السـلطان عبد الحق الثاني المريني، وتشير الموسوعة إلى فرض الوزير هارون ضرائب باهظة، وتوزيعه الإيرادات على أتباعه -قصدت الموسوعة بهم اليهـود - الفقراء، مما جعل رجـال الدين المسلمين يثـيرون العامـةَ عليه وعلى اليهود، فهاجموا اليهود في حيهم، وقتلوا السلطان والوزير، وهـذا ملخص عـرض القصة في الموسـوعة، والقصـة ذاتها مذكورة أيضًا عند المؤرخين العرب برواية عليها زيادة، فقد ذكرهـا أحمد بن خالد الناصري في كتابه «الاسـتقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، فقال إن الوزير ضرب «امرأة شـريفة» من أهل «حومة البليدة» في فاس، فاسـتغاثت المرأة برسـول الله - ﷺ - فغضب الوزير وزاد في عقابه لها، مما اسـتدعى غضب الناس حـال معرفتهم بالأمر، فتجمعـوا عند الفقيه «أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلي»، والذي استكبر الذل الذي يعيشـه المسلمون، وأوعز للناس بالفتك باليهود، وخَلْع السـلطان، فـكان أن هاجموا اليهـود في حارة اليهود في فاس، «فقتلوهم واسـتلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم»، ثم قتلوا الوزير والسلطان.

وبين رواية الناصري ورواية الموسوعة هناك أسباب مختلفة لحادثة قتل الوزير اليهودي هارون، فالناصري أشار إلى اعتداء على امرأة مسلمة، وإظهار عدم الاحترام للنبي محمد - ﷺ - بينما أشارت الموسوعة إلى ضرائب عالية، ولم تذكر هذا الاعتداء؛ ورواية الناصري أكثر دقة على ما يبدو، لأن تاريخ المسلمين مليء بحكايا مشابهة عن اعتداء على امرأة يفضي إلى قتل المعتدي، مثل قصة غزوة بني قينقاع، ومثل استنجاد امرأة بالخليفة المعتصم، والذي أفضى إلى فتح عمورية، فللعِرْضِ قيمة كبيرة عند المسلمين، كما أن المسلمين يعظمون الرسول - ﷺ - فهو رمز ديني لديهم، وإظهار عدم الاحترام له يستدعي غضبهم، بينما تعد الثورات على الحكام والوزراء لدوافع اقتصادية قليلة في تاريخ المسلمين، وإن قامت فلا تصل حد قتل الحاكم ووزيره، لذلك تبدو رواية الناصري أكثر إقناعًا، فلماذا لم تذكر الموسوعة السبب المباشر للحادثة؟

تــورد الموســوعة[1] ذِكرَ مدينة «آتشــين»، وهــي مدينة ألمانية على حــدود بلجيكا، بلغ أقصى تعــداد لليهود فيها ألفًا وأربعمائة وأربع وثلاثين نســمة فقط عام ٢٠٠٣م، وهذا بالطبع ضمن عشــرات الآلاف من غير اليهود الذين يعيشون هناك،وعلى الرغم من أن المدينة لم تشغل إلا ما يقارب نصف الصفحة من الموسوعة، إلا أن فيها ما لا يقل عن أربع إشارات إلى معانــاة اليهود فيها، بين نفــي، واعتقالات، وتهجير، واضطهــاد، وظلم،وهــروب، وطرد، وحرمــان من الحقوق التعليمية والدينية لقــرون، وهذا أحد الأمثلة على اضطهاد اليهود في آتشــين كما تقدمه الموســوعة: «تم نفي اليهود من آتشــين عام ١٦٢٩م، انتقل أغلبهم إلى بورتشــيد»، والسياق هنا ناقص، وليس فيه إلا معلومة مجتزئة من سياقها، وهي عبارة تترك لديَّ كقارئ الكثيرَ من الأســئلة، فمن الذي نفى اليهود من آتشين؟ ولماذا تم نفيهم؟

---

(١) انظــر الموســوعة اليهودية/ الجــزء الأول لمايــكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٠٧.

تذكر الموسوعة مقاطعة «آرغاو»، وهي مقاطعة شمالى سويسرا، وقد جاء في الموسوعة: «آرغاو: مقاطعة في شمال سويسرا. من المعروف أن بعض العائلات اليهودية عاشت هناك خلال العصور الوسطى. بين القرن السابع عشر ومنتصف القرن التاسع عشر كانت آرغاو منطقة الإقامة الدائمة الوحيدة لليهود في سويسرا، وقد عاش اليهود في مجتمعين؛ إندنجن ولينغناو، وهم الذين شنوا الكفاح من أجل التحرر اليهودي في سويسرا».[1]، والكفاح الذي قصدته الموسوعة هو الثورة على الرسوم العالية، والتنقل، ومحدودية المهن المتاحة، والقيود الاقتصادية، والملكية، ومقاومة حقوقهم الجديدة من منظمات معاداة اليهود، ولكن التقديم للمقاطعة مثير للريبة، فما أن عرَّفت الموسوعةُ المقاطعةَ، وذكرت أن اليهود عاشوا فيها، حتى قفزت بشكل فوري ومباشر إلى الاضطهاد الذي عانوه فيها، كما أن الموسوعة قد أشارت إلى عدة مظاهر لاضطهاد اليهود في آرغاو ولكنها

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٠٧.

لم تذكرأي سـبب لهذا الاضطهاد، هل كانت يهوديتهم هي سبب اضطهادهم؟

وفي الحديـث عـن الولايـة الكنديـة «ألبرتـا»، ورد في الموسـوعة: «علـى الرغم من أن المجتمـع اليهودي الأول في ألبرتـا واجه معاداة السـامية، وقد كانت معاداة السـامية حقيقة حياتية في قانون الهجرة الحكومي الكندي إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أنـها -معاداة السـامية- لم تكن معلنة بشكل كبير في مدن ألبرتا الرئيسية. لم يُستَدعى يهود ألبرتـا إلى المدارس المهنية كما حصل مع اليهود في مانيتوبا، وأونتاريـو، وكيبيـك. لم يكـن التمييز في ألبرتـا صريحًا ومنظمًا ولكنه كان موجودًا على المسـتوى غير الرسمي، مثل النوادي الاجتماعية. وقد كان هناك اسـتثناء متمثل بحزب الائتمـان الاجتماعي الذي حكـم في ١٩٣٥م. وقد أعطى هذا الحزب السياسـيين المعادين للسـامية منصة يستطيعون من خلالها التعبير عن آرائهم، واسـتخدام داعميهم القرويين. لامَ ماجور دوغلاس - مؤسـس الحـزب - يهودَ ألبرتا على الأوقـات الصعبة خـلال الثلاثينيـات، وحتى حين تحدث رئيس الوزراء وليام أبيرهاردت علانية ضد معاداة السامية،

فقد أعطت كتاباته ودائرته الاجتماعية -بمن فيهم هنري فورد- انطباعًا مترددًا إن لم يكن سلبيًا»[1].

وفي هذه الفقرة إشارات مبهمة كثيرة جدًا عن موضوع الظلم الذي تعرض له اليهود في ألبرتا، فقد ذكرت الموسوعة معاداةَ السامية في قانون الهجرة الحكومي الكندي، بل وجعلته «حقيقة حياتية»، ولكنها لم توضحه، أو تذكر في أي من فقرات القانون كانت تلك المعاداة، ثم تذكر الموسوعة تمييزًا غير صريح ولا منظم على المستوى غير الرسمي، وهي عبارة فضفاضة جدًا، لا يمكن قياسها، ومن الصعب تصديقها من وجهة نظر محايدة، فلم ترد لها أي مظاهر أو إشارات، إلا النوادي، والتي لم توضح الموسوعة أيضًا كيف ظُلِمَ اليهود في نوادي ألبرتا، ولماذا استخدمت الموسوعة لفظة «القرويون» للإشارة إلى الأفراد الذين كان يستخدمهم السياسيون «المعادون للسامية»؟ هل تملك الموسوعة إحصاءات ديموغرافية معينة عن هؤلاء الأفراد؟ أم أنها استخدمت لفظة قرويين للتقليل من الشأن الفكري لأعداء اليهود في ألبرتا؟ وذلك لما تحمله

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٥٩٠.

الكلمة من دلالة على البساطة والسذاجة، وفي الحديث عن كلام رئيس الوزراء أبيرهاردت «المعادي للسامية» لم توضح الموسوعة أين ومتى قال ذلك الكلام، بل إنها لم تذكره مطلقًا، كما لم تشر الموسوعة إلى سبب واحد يدعو سكان ألبرتا لاضطهاد اليهود، فهل نحن هنا أمام اضطهاد حقيقي عاناه يهود ألبرتا؟ أم أمام اصطناع للاضطهاد؟

ورد في فقرة صغيرة في الموسوعة ذكرُ «هارون بن إسحاق»، وقدمته الموسوعة على أنه رئيس «اليشيفا» في ألمانيا في القرن الثامن عشر[1]، واليشيفا هي معهد تعليمي ديني، يقوم بتدريس التقاليد والتعاليم اليهودية، ولكن هل كان هناك يشيفا حقًا في ألمانيا في القرن الثامن عشر؟ لماذا نسمع كثيرًا عن «الهولوكوست» - بل تؤرخ الموسوعة في العديد من فقراتها بمرحلة تاريخية تسميها «ما بعد الهولوكوست» - ولا نكاد نعلم بوجود اليشيفا في ألمانيا؟ حتى التصق في أذهاننا أن اليهود الألمان مضطهدون.

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢١٣.

وفي معرض الحديث عن «هارون بن حكيمان»، وهو شاعر يهودي عاش في بغداد في القرن الرابع عشر الميلادي، ورد ذكره في فقرة صغيرة في الموسوعة، حيث ذُكِر أن ديوانه الأصلي مفقود، وأن أجزاءً منه نُشِرت نهاية القرن التاسع عشر في «سانت بطرسبرغ»، واحتوت هذه الأجزاء المنشورة على كناه - مرادف للمرثية بالعبرية - لاضطهاد اليهود في بغداد عام ١٣٤٤م، وتدمير كنسهم وإهانة مخطوطات التوراة[١]، وهذه الفقرة مجتزأة أيضًا، وتترك ورائها المزيد من الأسئلة التي تستدعي البحث؛ ألم يحتو ديوان هارون ابن حكيمان إلا على الكناه؟ ولماذا تم اضطهاد اليهود وتدمير كنسهم وكتبهم في بغداد عام ١٣٤٤م؟

وردت قصة اليهود في أفغانستان في الموسوعة، والتي جاء فيها: «كان هناك حوالي خمسة آلاف يهودي يعيشون في أفغانستان في ١٩٤٨م. تبقى منهم حوالي ثلاثمائة في ١٩٦٩م. وكانوا متمركزين في كابل وبلخ وهرات. نُفِيَ اليهود من

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢١٧.

المدن الأخرى بعد اغتيال الملك نادر شاه في ١٩٣٣م. على الرغم من عدم إجبارهم على العيش في تجمعات منفصلة، إلا أن اليهود فعلوها حقًا، وكانوا يقفلون بوابات الغيتو ليلًا[1]. بدأت الحملة ضد اليهود في ١٩٣٣م. كانوا ممنوعين من مغادرة المدينة بدون إذن. كان عليهم أن يدفعوا ضرائب سنوية، ومنذ ١٩٥٢م – وهي السنة التي توقف قانون الخدمة العسكرية عن تطبيقه على اليهود – أصبح عليهم أن يدفعوا مقابل إعفائهم من الخدمة الحربية. الخدمات والمدارس الحكومية كانت مغلقة أمام اليهود، وكانت بعض المهن ممنوعة عليهم. وبناءً على ذلك، لم يتلقَ أغلب اليهود إلا التعليم الديني الأساسي في المنزل. كان هناك بعض العائلات الغنية، بينما كانت أغلب العائلات تعاني الفقر المدقع وكان الأغلب يعمل كخياطين أو صانعي أحذية. كان يهود أفغانستان ممنوعون من مغادرة البلد حتى ١٩٥٠م. على أي حال، فقد ذهب أربعمائة وتسعة وخمسون يهوديا أفغانيا بين حزيران ١٩٤٨م وحزيران ١٩٥٠م إلى إسرائيل.

---

(١) الغيتو هو حي بائس في المدن تسكنه أقليات معينة.

وقد هرب العديد منهم في ١٩٤٤م، وعاشوا في إيران أو الهند حتى تأسيس دولة إسرائيل. تم السماح لليهود بمغادرة أفغانستان منذ نهاية ١٩٥١م. حتى نهاية ١٩٦٧م، ذهب أربعة آلاف يهودي إلى إسرائيل. لم يكن مسموحًا بأي نشاط صهيوني في أفغانستان، ولم يُسمح للمبعوثين من إسرائيل الوصول إلى أفغانستان»[1].

وهي فقرة توحي بأنها ندب على حال اليهود الأفغان أكثر من أنها سرد تاريخي أكاديمي لحياتهم، فالتواريخ غير متتابعة بترتيبها الزمني، وليس بينها مشترك إلا الاضطهاد، وكأن الموسوعة تبحث عن الاضطهاد -أو ربما تدّعيه- وتقوم بسرده، وهذه الفقرة مجتزأة، وتترك لديَّ كقارئ الكثير من الأسئلة؛ لماذا تم نفي اليهود من المدن بعد اغتيال نادر شاه؟ وهل كان نفيهم شعبيًا أم رسميًا؟ دينيًا أم سياسيًا؟ لماذا بدأت الحملة ضد اليهود عام ١٩٣٣م؟ هل كانت الحملة ضد اليهود وحدهم؟ أم ضد الأقليات الدينية

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٤٣٣.

والعرقية بشكل عام؟ وهذه التعقيدات الرسمية من منع التعليم والسفر، هل كانت ضد اليهود وحدهم أيضًا؟ هل عاش اليهود فعلًا بشكل منعزل في الغيتو؟ أشارت الموسوعة إلى وجود عدة عائلات يهودية غنية، فكيف شكلت هذه العائلات ثرواتها وسط كل هذه التعقيدات والمنوعات؟ هل كل ما سبق من تصوير لاضطهاد اليهود في أفغانستان حقيقي فعلًا؟ ما علاقة المقدمة القائمة على سرد اضطهادات اليهود بالخاتمة التي تفيد أن أربعة آلاف يهودي هاجروا من أفغانستان إلى إسرائيل؟ هل يتم تصوير إسرائيل على أنها الخلاص والحل من أشكال اضطهاد اليهود من الآخرين؟ ما هو حال اليهود الأفغان اليوم في إسرائيل؟

وفي الموسوعة ورد ذكر «أبنير البرغشي»، وهو طبيب مرتد عن الديانة اليهودية، عاش في برغش الإسبانية بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وهذا الطبيب أصبح معاديًا لليهود بعد ارتداده، واقترح عدة إجراءات للتعامل معهم، وهي: وعظهم وعزلهم وإثارة الغوغاء عليهم[1]،

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٦٤.

ولـديَّ هنا الأسـئلة المطروحـة ذاتها، والمتعلقـة باضطهاد اليهود وعزلهم ومعاملتهم بعنف دون أسباب مذكورة.

لقد كانت هناك كلمات ترد كثيرًا في الموسـوعة بأجزائها الاثنين والعشـرين، فوردت كلمة الاضطهاد Persecution أو إحدى مشتقاتها (مضطهَد، مضطهِد، مضطهدون، اضطهد) ٢٤٥٠ مرة، وكلمة «المعاناة» Suffering أو إحدى مشتقاتها (يعاني، عانـى، يعانون) ٢٧٧٤ مرة، ووردت كلمة معادي لليهوديـة Anti-Jewish ١٧٢٩ مـرة، وكلمـة مذبحة أو مذابح Pogrom ١٣٠٩ مرة، عدا الكلمات الأخرى التي على شـاكلة: قتل، ونفي، وتهجير، وحرمان، وظلم، واعتداء، ومعاداة السامية، فلماذا ترد هذه الكلمات كثيرًا في الموسوعة اليهودية؟

وفي معرض الحديث عن يهود حلب، تقتطف الموسـوعة أجزاءً منفصلة من تاريخهم هناك، والذي يتباين بين الغنى والفقر، وبين الازدهار والتراجـع العلمي، ولكن الاضطهاد والعنـف والانعزال حاضران دائمًا، ونذكر هنا مثالًا أوردته الموسـوعة: «كان تعداد مجتمع اليهود في حلب حوالي عشرة

آلاف نسـمة في ١٩٤٧م. وفي ذروة العنـف ضـد اليهـود في ديسـمبر ١٩٤٧م، تم تدمير كل الكنس، وهرب سـتة آلاف يهـودي من المدينة. وعَبَرَ الكثـير منهم الحدود نحو تركيا ولبنان، حيث استقروا، أو أكملوا نحو إسرائيل، أو أوروبا، أو أمريكا. وفي ١ ديسـمبر ١٩٤٧م، اندلعت أعمال الشـغب ضد اليهـود في الحي اليهودي في حلـب. وتم تدمير حوالي مئة وخمسين مبنى، وخمسين بقالة ومكتب، وعشر كنس، وخمسـة مباني، وتم حرق مئة وستين مخطوطة توراتية من كنيس بحسـيتا. وحافظ قادة المجتمع على «كتير آرام زوفا» الشـهيرة [١]، والذين بفضل جهودهم وصلت المخطوطات إلى إسرائيل. أفادت منظمة التلغراف اليهودية في تشرين الثاني ١٩٤٧م أن اثنين وعشـرين يهوديًا من حلب تم اعتقالهم عند محاولتهم عبور الحدود بين لبنان وإسـرائيل. هناك تقارير أخرى حول العديد من اليهود من حلب الذين حاولوا الهرب

(١) كتـير آرام زوفا: مخطوطـة عبرية للكتاب المقـدس تعود للعصور الوسطى.

إلى إسرائيل. وقد عانى اليهود أيضًا في عهد العقيد أديب الشيشكلي (١٩٤٩ - ١٩٥٤م)»[١].

وبالإضافة إلى الأسئلة المطروحة سابقًا عن حقيقة اضطهاد اليهود والأسباب غير المذكورة له، وعن حقيقة ومدى عزلة اليهود عن مجتمعهم، وهي الأسئلة التي تركتها كل النصوص السابقة تقريبًا، هناك سؤال آخر جديد حضرني هنا في معرض الحديث عن تقارير منظمة التلغراف، حيث وردت لفظة «إسرائيل»، فهل كانت إسرائيل قائمة عام ١٩٤٧؟ أم أن اسمها كان فلسطين؟ وبالعودة إلى الصفحة ٦١٥ من الموسوعة - وفي معرض الحديث عن يهود حلب أيضًا- تقول: «ابتدع الكثير من الباحثين في المجتمع آداب جديدة. وكان هناك حاخامات ابتكروا آداب دينية جديدة أيضًا. معظم هؤلاء الباحثين استقروا في أرض إسرائيل»، وهذه الأحداث - برواية الموسوعة اليهودية - في فترة ممتدة بين عشرينيات القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٦١٦.

عشر الميلاديين، فهل كانت تُدعى «إسرائيل» في ذلك الوقت؟ أم كان اسمها فلسطين؟ لا شك أنها كانت تدعى فلسطين، وأن الدولة اليهودية الحديثة أخذت اسمها بعد ١٩٤٨م.

وهناك إشارات أخرى لاسم «إسرائيل» - كدولة - في غير موضعه، وفي عصور مختلفة لم تكن الدولة اليهودية المعاصرة موجودة حينها، ولا كانت دولة «طالوت» القديمة موجودة أيضًا، ومنها على سبيل المثال؛ عند الحديث عن الأب «بارأحا»، تورد الموسوعة أنه ولد في «أرض إسرائيل»، في القرن الثالث الميلادي[1]، وفي الصفحة نفسها إشارة إلى هجرة الأب «بار أبينا» في القرن الثالث إلى «أرض إسرائيل»، بينما لم تكن إسرائيل موجودة في القرن الثالث الميلادي، وكانت المنطقة تحت الحكم الروماني، واسمها فلسطين، فإلى ماذا تهدف الموسوعة اليهودية بعبثها بالمصطلحات؟

وبقراءة الجزء الأول كاملًا من الموسوعة اليهودية، نجد أنه يحتوي على أسماء دول أو مدن أو أحياء أو مقاطعات

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٢٥.

شملت العالم الحديث كله تقريبًا، ورد لبعضها توصيف كامل ومستقل، وورد ذكر لبعضها الآخر كأماكن عاشت فيها شخصيات جاء توصيفها في الموسوعة، ونذكر هنا بعض الأماكن التي جاءت بتوصيف مستقل على سبيل المثال لا الحصر؛ ورد ذكر جزيرة عبادان الإيرانية (ص ٢٢٤)، ومدينة عكا الفلسطينية (ص ٣٦٤)،ومدينة عدن اليمنية (ص ٣٨٧)، ومدينة «أديلايد» الأسترالية (ص ٣٨٥)،ودولة أفغانستان (ص ٤٣٢)، ومنطقة «أجان» الفرنسية (ص ٤٤٩)، ومقاطعة «جرجنت» في «صقلية» الإيطالية (ص ٥٠٢)، ومدينة «أحمدنجار» الهندية (ص ٥٤٧)، ومدينة «ألبرتا» الكندية (ص ٥٨٩)، ومدينة «ألباكركي» المكسيكية (ص ٥٩٧)، ومدينة حلب السورية (ص ٦١٣)، ومدينة الإسكندرية المصرية (ص ٦٣٢)،وهذا بالإضافةللكثير من المدن القديمة البائدة، ولكن ما هو المشترك بين الجماعات اليهودية التي عاشت في كل هذه الأماكن في الأرض لتُجمَع بين دفتي كتاب واحد؟

وبالإضافة إلى أن هذه المجتمعات اليهودية كلها - المذكورة في الموسوعة - لا يجمعها مكان واحد، فهي كذلك

غير مشتركة في الزمان أيضًا، فقد تواجدت في فترات متباينة تمتـد من القرن الثالث عشـر قبل الميلاد - حسـب الروايات الدينيـة اليهوديـة - أو القرن الأول الميـلادي اعتمادًا على الشـواهد التاريخية، وتسـتمر حتى يومنا هذا، وليس بين هـذه المجتمعات المختلفة صلات دم، بل إنهم أعراق مختلفة ومنفصلة، ففيهم مثلًا اللاتينيون والجرمان والعرب والكوش، إن المشـترك الوحيد بين هذه المجتمعات الواردة في الموسوعة هو أنهـم يدينون باليهودية، ويبـدو أن اليهودية - كعامل جوهري مشترك - هي الأساس الذي اعتمدت عليه الموسوعة اليهوديـة في التأريخ، فقد ورد مصطلـح «التاريخ اليهودي» ١٨٩٢ مرة في الموسوعة بكاملها، وعلى الرغم من وروده ملحقًا بمنطقـة في بعض الأحيان، مثل التاريخ اليهودي الأمريكي، أو التاريـخ اليهودي في شـرق أوروبا، إلا أنـه غالبًا ما كان يأتي بدلالته المطلقة، بالإضافة إلى ورود مصطلحات أخرى في الموسوعة تدور حول اليهودية كعامل مشترك، مثل: «الأدب اليهـودي»، وقـد يُفهَم وجـود مصطلحات دينيـة يهودية مشتركة عبر التاريخ والجغرافيا، مثل: التصوف اليهودي،

أو الدراسات التوراتية، كما يُفهَم وجود مصطلحات تشير إلى التأريخ لدولة أو منطقة جغرافية، مثل: تاريخ فلسطين، أو تاريخ الشرق الأوسط، ولكن ما هو التاريخ اليهودي؟ هل هو تاريخ كل اليهود بأعراقهم وطوائفهم الدينية والبلدان التي عاشوا فيها - حتى كأقليات - بمختلف الفترات الزمنية؟ وعلى هذا النحو، هل نتخيل مصطلح يسمى «التاريخ الإسلامي»، أوسع من تاريخ «الدولة الإسلامية» - صاحبة الأرض الواحدة- المعروف في الأدب والأكاديميا، من حيث شموله لأقليات المسلمين في الصين والهند والتبت وأستراليا وأثيوبيا وأمريكا وغيرها، إذًا فنحن في هذه الحالة سنواجه مصطلح يشمل تاريخ العالم كله بدءًا من القرن السابع الميلادي.

نتائج الاستقراء

خَلُصَ استقراء الموسوعة اليهودية إلى عدة نتائج، وهي:

- هناك إشكالية عميقة في الفكر اليهودي تُدعى «التاريخ اليهودي»، وهي إشكالية إبراز اليهود عبر العصور والأماكن المختلفة على أنهم أصحاب تاريخ مشترَك، وهذه

الإشكالية قائمة على إيجاد ارتباط بين كل ما هو يهودي، بغض النظر عن التاريـخ والجغرافيا، فالتاريخ اليهودي يتعامل مع يهود «الفسطاط» في القرن الحادي عشر ويهود «وارسو» في القرن العشرين ويهود «جوهانسبيرغ» في القرن الواحـد والعشـرين على أنهم مجموعة واحدة، تشـترك بيهوديتهـا، ويتجاهل كل ما هو غير ذلك، مثل: العرق والطائفـة الدينية والدولة الحاكمـة، وهذا على الرغم من ورود إشارات صريحة لاختلاف اليهود العرقي والطائفي في الموسـوعة اليهودية، فمثلًا؛ عند الحديث عن «هارون ابن جوزيف هاروفي الأكبر»، وسـرد قصته، وهو حاخام عاش بين القرنين الثالث عشـر والرابع عشر الميلاديين، نجد الموسـوعة تسهب في شـرح المجادلات القائمه بينه - وهو من القرائين - وبين الحاخاميين، على أمور عدة، منها آلية احتساب الشهور والتقويم، وشرعية الزواج من ابنة الأخ أو الأخت[1]، ونجد أيضًا الخلاف الأخير نفسه-

(١) انظـر الموسـوعة اليهودية/ الجـزء الأول لمايـكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢١٥.

الزواج من ابنة الأخ أو الأخت- مذكورًاعند الحديث عن الأكاديمي القَرّاء «هارون بن يهوذا كوسديني»، والذي عاش نهاية القرن الثاني عشر الميلادي [1]، وكذلك نجد ذكرًا لشخصيات تنتمي لطائفة السامريين، فقد ذُكِر مثلًا في الموسوعة «أبو الحسن»، العالم السامري الذي عاش في «صور» اللبنانية في القرن الحادي عشر الميلادي [2].

وكذلك ذُكرت الأعراق المختلفة لليهود صراحةً في الموسوعة، ومن الأمثلة على ذلك ذِكرُ الموسوعة لمغنية الأوبرا «لينا أباربانيلي»من يهود السفرديم [3] -يهود من أصول إسبانية أو برتغالية- والكاتب الفرنسي المغربي «إليت أبيكاسيس»، والمولود لعائلة سفردية [4]، ومن يهود الأشكناز

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢١٥.

(٢) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٣٣٥.

(٣) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٢٤.

(٤) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٤٤.

-يهود تعود أصولهم إلى شرق ووسط أوروبا- تذكر الموسوعة الراهبة الصوفية «ريتشل أبيرلين»، والتي عاشت في القرون الوسطى، بين اليونان وفلسطين وسوريا[1].

- ومن صفات ذلك التاريخ اليهودي المزعوم الاستمرارية، لأنه يربط الأحداث بين المجموعات اليهودية بشكل متصل منذ وصول إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين -أي قبل ظهور الديانة اليهودية- حتى يومنا هذا، على الرغم من عدم وجود ما يكفي لجعل تلك الأحداث المرتبطة متصلة، فلا يوجد دولة يهودية يؤَرخ لها إلا لفترات قصيرة من التاريخ.
- يقوم منهج التأريخ للتاريخ اليهودي المشترك المزعوم على إيجاد شخصية أو مجموعة بارزة تدور حولها الأحداث، ولصق الأحداث التاريخية معًا بتجاهل تام لعامل المكان، والبحث عن اضطهاد ما لهذه المجموعة، أو صُنعه، وبدون إظهار أسباب ذلك الاضطهاد؛ وهذا لإضفاء بُعد تراجيدي

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الأول لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٥٤.

على هذا التاريخ المزعوم، وإيجاد سبب للهجرة من هذه البلدان، والتجمع في مكان واحد،وهو إسرائيل؛ بالإضافة إلى كسب الرأي العام؛ لنجد أن الصورة المُصدَّرَة لهذا التاريخ هي سلسلة من المصائب التي حلت بهذا «الشعب» -كما تسميه الموسوعة- من السبي البابلي، وحرق «تيتوس» للقدس، وصولًا إلى الهولوكوست، فضلًا عن خلق مصطلحات لها البعد المأساوي نفسه، مثل «الشتات»، أو التركيز على هذه المصطلحات وتكرارها بشكل مبالغ فيه.

• وبناءً على هذا الظلم المزعوم تنتج شخصية يهودية بصفات معينة مشتركة، لنجد الأكاديميا العبرية، والغربية في بعض الأحيان، وربما العربية أيضًا، تُصَوِّرُ اليهودي بأنه ذلك الروحاني المتدين المقتصِد المضطهَد من الجميع، والذي أجبره العالم كله قسرًا على العزلة، لنجد أنفسنا أمام قضية جديدة، وهي «الجوهر اليهودي»، وقد أشار عبد الوهاب المسيري إلى مصطلح الجوهر اليهودي باعتباره «مجموعة الخصائص الثابتة في ظاهرة ما أو هو ما لا يتغير بتغير المكان أو الزمان. وفكرة الجوهر اليهودي

الخالص (الثابت) هي فكرة كامنة وراء العديد من المفاهيم والمصطلحات والنماذج التفسيرية المستخدمة في دراسة الجماعات والعقائد اليهودية، مثل: «التاريخ اليهودي»، و«الشخصية اليهودية»، و«العبقرية اليهودية»، و«الجريمة اليهودية»، و«الشعب اليهودي»، و«العِرق اليهودي»، و «الإثنية اليهودية». فكل هذه المصطلحات تفترض وجود هذا الجوهر اليهودي الخالص الثابت الذي يجعل من يهودية اليهودي النقطة المرجعية الأساسية لتفسير سلوكه[1].

- وهذا التاريخ اليهودي المزعوم يتعامل مع اليهود كأنهم يعيشون وحدهم، وكأن ليس لهم علاقة بالدول التي يعيشون فيها كأقليات، فلا يتحدث هذا التاريخ عن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية والحضارية والعلمية والسياسية مقارنةً بغيرهم من سكان الدولة التي يعيشون فيها، ويعزلهم عن الصراعات والتحالفات

(١) انظر كتاب موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية/ المجلد الثاني لعبد الوهاب المسيري (طبعة دار الشروق)، ص ١٣.

الكـــبرى، وعن موازيـــن القـــوى الدولية، ويأخـــذ جزءًا صغيرًا من تلك الصـــورة الكاملة لفترة تاريخية ما، وهذا بالطبع يسهل جعل ذلك الجزء منتقى،ويصور الجماعات اليهوديـــة في كل مـــكان بأنهـــا مضطهـــدة ومظلومة، وأن خلاصها هو الدولة المستقلة أو «أرض إسرائيل» المزعومة، وهذا ما يخدم المسألة الصهيونية المعاصرة.

- وهذا التاريخ الوهمي المشـَترك المستمر والمنعزل عن سياقه الحضـــاري يواجه بلا شـــك -لاعتماده علـــى الميثولوجيا الدينية بـــدلًا من المعايير العلميـــة- العديد من الفجوات لإظهار الحق اليهودي في فلســـطين وتبرير الأيديولوجيا الصهيونية،فيقـــوم بمـــلء تلـــك الفجـــوات باعتمـــاده الجوهـــري على الخلط المريـــب بين المصطلحـــات، فنجد كلمات مثل (يهودي، وإســـرائيلي، وصهيوني، وعبري) تـــرد كثـــيرًا في غير مواضعهـــا، وغالبًا ما تشـــير إحداها إلى أخـــرى، وقد تفاقمت الأزمة حـــد اختراع مصطلحات جديدة فضفاضة تشـــير إلى عدة أشياء في آن واحد لملء تلك الفجوات التاريخيـــة، وأبرز هذه المصطلحات «عبراني»،

والذي يشير إلى كل الساميين الذين سكنوا بلاد كنعان، ويصمم اليهود على احتكاره، متجاهلين سامية العديد من الشعوب المعاصرة مثل العرب والسريان، وغيرهم من الأقليات، وخالطين مرة أخرى بين اليهود كأتباع دين معين وبني إسرائيل كأبناء عرق معين.

- وأزمة المصطلحات هذه تفضي إلى دلالات مشبوهة يعتريها الغموض، فالآرامية أصبحت تشير إلى لغة يهودية مقدسة، واليهود أصبحوا امتدادا مباشرا ومحتكَرا للساميين، والعبرية أصبحت فرعًا أصيلًا من اللغات الكنعانية، واليهود أصبحوا أبناء يعقوب عليه السلام، وعملة الدولة الصهيونية أصبحت شيكل، والجماعات اليهودية كلها تم اختزالها بـ«اليهود»، وقد أصبح بديهيًا توظيفُ أزمة المصطلحات تلك سياسيًا لإضفاء شرعية دينية وتاريخية للدولة الصهيونية المعاصرة، وهذا نجده صراحةً في الموسوعة اليهودية، في معرض الحديث عن إسرائيل، حيث تورد الموسوعة: «عندما كبر الأحفاد المباشرون ليعقوب (سفر الخروج ١:١) – وهو إسرائيل الذي أخذ لقبه

الشـرفي بعد صراعه مع الملاك[1] - ليصبحوا شعوبًا أصبحوا يُدعون «شعب أبناء إسرائيل» (سفر الخروج: ١ : ٩)، ومن الآن فصاعدًا، بعد انقسـام المملكة تحـت حكم رحبعام فإن «إسـرائيل» أو «أبناء إسرائيل» هم دلالة على ما يعرف الآن بالشعب اليهودي»[2].

وهي مغالطة كبيرة جـدًا، فاليهود ديانة اتبعها الكثير مـن الأعراق في العالم، بينما أبناء إسـرائيل هم عرق منفصل يتبـع ديانات مختلفة اليـوم، وليس بالضـرورة أن يكونوا جميعًـا يهود، وهو خلط سياسـي محض بـين المصطلحين، وهي النتيجة نفسـها التي خلص لها جمال حمدان في كتابه «اليهود أنثروبولوجيًّا»، حيـث قال: «إن اليهود اليوم إنما هـم أقارب الأوروبيين والأمريكيين، بل هم في الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحمًا ودمًا، وإن اختلف الدين.

---

(١) انظر الموسـوعة اليهودية/ الجزء العاشـر لمايـكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٩٨.

(٢) نفسه.

ومن هنا فإن اليهود في أوربا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين، أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء في منفى ودخلاء بلا جذور فذاك في بيت العرب وحده، في فلسطين حيث لايمكن لوجودهم إلا أن يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز. وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ أنثروبولوجيا وغير أنثروبولوجي.

وانطلاقا من هذا يسقط كذلك ادعاء سياسي للصهيونية في (أرض الميعاد) فبغض النظر عن أن القانون الدولي يتكفل بشجب وتفجير ادعاءاتهم في أي أساس تاريخي أو ديني، فإن الأنثروبولوجيا تبدد أي أساس جنسي قد يزعمون في هذا الصدد. فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة، بل هم مجرد طائفة دينية تتألف من أخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس. ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم جنسيا أو أنثروبولوجيا بفلسطين. وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الأوروبيون أو الأمريكيون بالنسبة إليها. وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل

الصهيونية، فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان، وإنما هي غزو الأجنبي الغريب بالإثم والعدوان»[1].

إن ذلك التاريخ الوهمي المزعوم هو الذي خلق تلك الفكرة التي بُنَي عليها وجود تمثال لهاليفي في الدولة اليهودية المعاصرة، فذلك التاريخ يحتاج إلى رموز تدعم فكرته، وإني وإن كنت قد بدأت هذا الكتاب بملاحظة لتمثال هاليفي في فلسطين المحتلة، إلا أنني بنهاية بحثي صادفت طرقا أخرى للاحتفاء بشخصيات يهودية لا تمت للدولة اليهودية المحتلة بأية صلة، مثل: وجود حديقة باسم «سيمون دوبنوف»[2] في تل الربيع، ووجود شارع باسم الغاون «سعديا الفيومي»[3] في تل الربيع، وشارع آخر على اسم الشاعر اليهودي الروماني «أليعازر هاكالير» في تل الربيع، وشارع

---

(١) انظر كتاب اليهود أنثروبولوجيًا لجمال حمدان (طبعة دار المعارف)، ص ١٢٨ - ١٣٠.

(٢) مؤرخ روسي يهودي عاش نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

(٣) حاخام وفيلسوف ولغوي يهودي مصري، كان رئيسًا لليشيفا في بابل في القرن العاشر الميلادي.

آخر يحمل اسم «شلومو بن جبيرول»[1] في تل الربيع، وللمفارقة فإن لهذا الرجل تمثال في «ملقة» في إسبانيا أيضًا.

الموسوعة وإشارات أخرى

فهل كان اليهود منعزلين ومضطهدين فعلًا كما صورتهم الموسوعة اليهودية؟ وهل كانوا يعيشون وحدهم في مجتمعاتهم المغلقة؛ بأسوارها أو معتقداتها؟وهل كانت صِلاتهم بشعوب الدول التي يعيشون فيها معدومة؟ولكن ماذا عن تلك الإشارات التاريخية الكثيرة من هنا وهناك على اندماج المجتمعات اليهودية في الدول التي عاشت بينها؟ وتأثُر اليهود كثيرًا بالأديان واللغات والثقافات المحيطة؟فمثلًا؛ أورد «ويل وإيريل ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة» أن بعض اليهود عبدوا «بعل»، وهو إله في الميثولوجيا السامية، عبده الكنعانيون والفينيقيون والأوغاريتيون، كما ذكروا أن بعض اليهود عبدوا العجل والأفعى والكبش والحمل

(١) شاعر وفيلسوف يهودي أندلسي عاش في القرن الحادي عشر، سنأتي على ذكره لاحقًا بمزيد من التفصيل.

والأصنام[1]، وقد تحدثت الأقليات اليهودية لغة الدولة التي كانوا يعيشون فيها، بالإضافة إلى العبرية في بعض الأحيان، وليس دائمًا، ولطالما نجد في التراث العربي إشارات إلى شعراء يهود نظموا الشعر بالعربية، ومن ذلك قصيدة «السموأل بن عادياء الحارثي»، والتي يقول في مطلعها[2]:

إِذا المَرءُ لَمْ يُدنَسْ مِنَ اللُّؤمِ عِرضُهُ
فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ
وَإِنْ هُوَ لَم يَحمِل عَلى النَفسِ ضَيمَها
فَلَيسَ إِلى حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ
تُعَيِّرُنا أَنّا قَليلٌ عَديدُنا
فَقُلتُ لَها إِنّ الكِرامَ قَليلُ
وَما قَلّ مَن كانَت بَقاياهُ مِثلَنا
شَبابٌ تَسامى لِلعُلى وَكُهولُ

---

(١) انظر كتاب قصة الحضارة/ المجلد الأول: الجزء الثاني لويل وايريل ديورانت (طبعة دار الجيل، مترجم إلى العربية)، ص ٣٣٩.

(٢) القصيدة في كتاب الحماسة لأبي تمام (طبعة دار الكتب العلمية)، ص ٢١.

وَما ضَرّنا أنّا قَليلٌ وَجارُنا
عَزيزٌ وَجارُ الأَكثَرينَ ذَليلُ
لَنا جَبَلٌ يَحتَلُّهُ مَن نُجيرُهُ
مَنيعٌ يَرُدُّ الطَرفَ وَهُوَ كَليلُ

وهي ليست قصيدة عربية اللغة فقط، بل إنها مشبعة بالثقافة العربية الجاهلية، ففيها ذلك الفخر الجماعي بالكرم والشجاعة وحماية الجار، وتلك الإشارات إلى مقتضيات الشرف، والتي عرفناها في قصائد الشعراء الجاهليين عامةً، لذا لا نكاد نفرقها عن غيرها من قصائد تلك الفترة في ذلك المكان؛ موضوعًا وبنيةً، فلا يبدو أن السموأل - وربما غيره من يهود ذلك الزمان - قد تأثروا بيهوديتهم في شعرهم بمقدار تأثرهم بالثقافة العربية المحيطة، والتي تعتبر اللغة إحدى ركائزها الرئيسية.

وحول العالم وعبر التاريخ نجد أغلب مؤلفات اليهود بلغات أقوامهم، وليس بالعبرية، وكذلك فعل المؤرخ الروماني اليهودي «يوسفوس فلافيوس»، والذي عاش في القرن الأول الميلادي، وكتب العديد من الكتب بالإغريقية

-التي كانت لغة العلم والأدب في الإمبراطورية الرومانية - مثل كتاب «آثار اليهود»، وكَتَبَ سعديا الفيومي - الحاخام والفيلسوف المصري ورئيس أكاديمية سورا في بابل في القرن العاشر الميلادي - كتبه باللغة العربية، أو باللغة العربية بحروف عبرية، وما يزال اليهود المنتشرون في أوروبا وأمريكا يكتبون باللغات الأم للدولة التي يعيشون فيها حتى يومنا هذا، والأمثلة عليهم كثيرة لا تعد ولا تحصى، وليست حالات نادرة، ولكننا نخشى الإطالة، فنكتفي بالإشارة السريعة المختصرة بذكر «نعوم تشومسكي»، اليهودي الأمريكي الذي كتب العديد من كتبه بالإنجليزية.

ولم يقتصر أمر الكتابة بلغات غير العبرية على الكتب الدنيوية فقط، بل وصل إلى الكتب الدينية المقدسة أيضًا، فنجد أن أسفار العهد القديم - التوراة والتلمود - لم تُكتَب كلها بالعبرية، بل كُتِبَت بالكلدانية والآرامية والكنعانية، وكذلك الإنجيل الذي جاء في بني إسرائيل أنفسهم، حتى ولو لم يؤمن به أتباع الديانة اليهودية، إلا أنه جاء كما يُفترَض وسط متحدثي العبرية في العالم، ولكننا نجد أن لغاته

الأصليــة هي الآراميــة والإغريقية، مع أنــه وتبعًا لفرضية الانعــزال المادي والثقافي التي يقدمهــا الفكر اليهودي، فإن كاتبيه من المفــترض أن يتكلموا العبرية،أما كتاب التصوف اليهودي -القبّالاه - الأهم، والــذي يدعى «الزوهار»، فهو مكتوب بالآرامية، وعلى الرغــم من ظهوره في القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أن هناك فرضيات مهمة ترجع كتابته إلى قبل ذلك بكثير، فلماذا لم يكتَب بالعبرية؟

وهذه الملاحظات السابقة تصطدم مع الفكر اليهودي الذي تقدمه الموسوعة اليهودية، وتثير عاصفة هوجاء من الأسئلة حــول انعزال المجتمعــات اليهودية كنتيجــة لاضطهادهم وظلمهم، فما هي حقيقة هذا الانعزال؟ يحاول الباب الثاني من هذا الكتاب الإجابة عن هذا الســؤال، بتقديمه دراســة حالــة تحليلية ونقدية معمقة للشــعر العــبري الذي نظمه شعراء عاشوا في الأندلس تحت الحكم الإسلامي، منذ وصول المســلمين إلى الأندلس بداية القرن الثامن الميلادي حتى موت يهوذا هاليفي في منتصف القرن الثاني عشر.

الباب الثاني
دراسة حالة للشعر العبري في الأندلس

لقد قمنـــا باختيار الشـــعر عند اختبـــار فرضية انعزال اليهود لافتراضٍ منـــا أن اندماج الأدب هو انعكاس مباشـــر لاندماج ثقافات المجتمع، وأن الأدب بشـــكل عام – ومنه الشعر بطبيعة الحال – هو آخر ما يندمج بين ثقافتين، فقـــد تفرض الحاجة للتعايش بين ثقافتين درجاتٍ كبرى من الاندماج الاقتصادي أو السياســـي، أو كليهما معًا، ولكنها – الحاجة للتعايش – لا تســـتدعي درجات عالية من الاندماج الأدبـــي، الـــذي لا يمكـــن أن تفرضه حاجـــة، ولا يعني إلا التعايـــش المقبـــول والاختيـــاري والمرضي عنـــه، ولذلك فإن دراسة فرضية الاندماج اليهودي عن طريق الأدب تعتبَر أقل تحيزًا من دراستها من نواح أخرى.

ويبدأ الفصل الأول من هذا الباب بسرد سريع لتاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية – إسـبانيا والبرتغال – ولتاريخ اليهود

فيها، وذلك لعظيم الصلة بين الماضي والحاضر، ولما للأحداث التاريخية من أثر مهم ومباشر على الأحداث المعاصرة وعلى الهوية الحالية لأي مجتمع، وهي الفرضيات نفسها التي استند عليها المنهج التاريخي في دراسة الظواهر المعاصرة، كما يهمنا أيضًا من دراسة تاريخ يهود أيبيريا معرفة أحوال المجتمع الأيبيري اليهودي وقت وصول المسلمين، لما في ذلك من أهمية في افتراض موقفهم -وما بني عليه- من هذا الوصول.

ويناقش الفصل الثاني من هذا الباب مظاهر تحضر المجتمع اليهودي في الأندلس، على اعتبار أن الشعر -والفن عمومًا- هو نتيجة حضارية لتطور الإدارة السياسية، ثم الاكتفاء الاقتصادي، وهي العناصر التي لا يتطور الأدب بدونها، وقد شكل هذا التسلسل ملامحَ المنهج الحضاري في دراسة الشعر، والذي قدمناه في كتابنا «صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارة والثقافة»[1].

---

(١) انظر كتابنا «صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارة والثقافة» (طبعة دار المعارف)، ص ١٠٥.

أمـــا الفصل الثالث فيقدم للشـــعر العـــبري، ويتتبع حال اللغة العبرية، ثم يعرِّف الشعراء اليهود في الفترة الممتدة من بداية القرن الثامن حتى منتصف القرن الثاني عشر، علمًا بأن الشـــعراء الذيـــن أوردناهم كلهم كتبوا شـــعرًا بالعبرية، أما شـــعراء اليهود الذين كتبوا شـــعرهم كلـــه بالعربية فقط فقد اســـتُثنوا من هذا العرض، ولم يُشـــمَلوا في هـــذا الكتاب، كما يقدم الفصل الثالث أيضًا دراســـة ثقافية مقارنة بين الشعرين العربـــي والعبري في الأندلس، ويفحص وجود أثر ما لإحدى الثقافتين الشعريتين على الأخرى.

الفصل الأول
نظرة تاريخية على الجزيرة الأيبيرية

ما قبل التاريخ

تم العثور على أحافير وأدوات حجرية تخص ستة أشخاص على الأقل في أحد كهوف جبال «أتابويركا»، في شمال إسبانيا، في تسعينيات القرن الماضي، وتدل تلك الأحافير أن أولئك الأشخاص عاشوا في أتابويركا قبل ثمانمائة ألف سنة على الأقل، مما يشير إلى أقدم تجمع إنساني معروف في غرب أوروبا [1]، وهذه الفترة -قبل ثلاثمائة ألف سنة من الآن- تأتي في نطاق العصر الحجري القديم السفلي، أي أنها أقدم فترة في العصر الحجري، والذي ينقسم إلى قديم وحديث، والقديم ينقسم إلى سفلي ووسيط وعلوي-بالترتيب

---

(١) انظر ورقة بحثية بعنوان «مواقع أتابويركا وإسهاماتها في معرفة التطور الإنساني في أوروبا» لبيرموديز دي كاسترو وآخرون (منشورة في دورية الأنثروبولوجيا التطورية: قضايا وأخبار ومراجعات، باللغة الإنجليزية).

الزمني من الأقــدم إلى الأحدث–والعصر الحجري هو العصر الذي اعتمد الإنسان فيه على الأدوات المصنوعة من الحجارة، وعلى استخدام النار في حياته اليومية.

تتابعت عصور «ما قبل التاريخ» – كما يسميها المؤرخون – فانتهــى الحجري وجاء بعده النحاســي، ثم البرونزي، ثم الحديدي، ثم بدأ «التاريخ القديم» بانتهاء العصر الحديدي، وكان لــكل عصــر مميزاته، وهوية خاصة به فرضها شــكل الحياة فيه، ويدل اســم كل عصر على تلــك الهوية،وأغلب الأحــداث في تلك العصــور مجهولة وافتراضيــة، وما تزال محل جدل في الأوســاط الأكاديمية، لذلــك من غير المعروف تمامًا كيف كانت الحياة على شــبه الجزيرة الأيبيرية –ولا غيرها– في تلك الأزمنة الموغلة في القِدَم.

التاريخ القديم

يؤرَخ لفترة التاريخ القديم بانتهاء العصر الحديدي، أي بدءًا من القرن الثالث قبل الميلاد في أغلب مناطق العالم،ونقول أغلــب مناطق العالم لأن العصــور لا يفصلها زمان مطلق، بل

تنتهـــي بمظهر معـــين، لذلك فانتهاؤها لم يكـــن متزامنًا في العـــالم كله، وقد كان بدء الكتابة هو ذلك المظهر الذي يفصل بين فترتي ما قبل التاريخ والتاريخ القديم،ويورد «بوســـك» في كتابه «تاريخ إســـبانيا والبرتغـــال: من ١٠٠٠ قبل الميلاد إلى ١٨١٤ للميلاد» أن الحضارات التي كانت تســـود العالم في فـــترة التاريخ القديم قد وصلت إلى شـــبه الجزيرة الأيبيرية وحكمتها، ففي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد كانت أول مستعمرات فينيقيـــة وقرطاجية في شـــبه الجزيـــرة[١]، والفينيقيون هم شعوب ســـامية، سكنوا بلاد الشـــام منذ ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وبنـــوا حضـــارة عظيمة بلغت أوجهـــا نهاية القـــرن الثاني وبدايـــة القرن الأول قبل الميلاد، وكانـــت عاصمتهم الجبيل ثم صـــور -وهي مدن تتبع الجمهورية اللبنانية اليوم - وقد كان الفينيقيـــون يبنـــون موانى على البحر الأبيض المتوســـط أو يســـيطرون علـــى المدن هناك، تســـهيلًا لهـــم في أعمالهم

---

(١) انظـــر كتاب تاريخ إســـبانيا والبرتغال: مـــن ١٠٠٠ قبل الميلاد إلى ١٨١٤ للميلاد لبوســـك (نُشِـــرَ بإشراف جمعية نشـــر المعرفة المفيدة، باللغة الإنجليزية).

التجارية، فحكموا عدة مدن ساحلية، مثل؛ «جنوا» و «مرسيليا» و «قسنطينة» و «لارنكا» و «فينيقية» - وهذه الأسماء المعاصرة لتلك المدن، بينما تختلف أسماؤها في ذلك الزمن - ووصل الفينيقيون إلى أيبيريا أيضًا وسيطروا على العديد من مدنها مثل؛ «لشبونة» و «تاويرا» و «الغارف» في البرتغال، و «أَلميريا» و «سبتة» و «أليكانتي» و «قادِس» و «إبيثا» و «روتا» في إسبانيا، وقد كانت قرطاج - وهي مدينة تونسية اليوم - هي أشهر وأهم هذه المدن الفينيقية، وهي مدينة تأسست عام ٨١٤ ق.م، وسرعان ما استقلت عن الحكم الفينيقي، وكونت حضارة مهمة وقوية إلى أن دمرها الرومان عام ١٤٦ قبل الميلاد، أما الفينيقيون فقد انتهت دولتهم قبل ذلك، وتحديدًا بغزو الفرس لهم عام ٥٣٩ قبل الميلاد، وتفتت دولتهم إلى مدن ضعيفة سرعان ما زالت، وقد تقاسم الإغريق - الذين كان يتعاظم نفوذهم نهاية الألف الأول قبل الميلاد - حكمَ المدن الأيبيرية مع الفينيقيين والقرطاجيين.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد كانت قوة الإمبراطورية

الرومانية الغربية تتعاظم، وكان عام ١٤٦ق.م نقطة فارقة في تاريخهم، فقد قضوا على القرطاجيين كما أسلفنا، وانتصروا كذلك على الإغريق، وقد غيرت سلسلة انتصاراتهم تلك شكل العالم، الذي حكموه وأصبحوا سادته، وكان مما حكموا أيضًا أيبيريا، وقد عانت الإمبراطورية الرومانية الغربية من الضعف نهاية القرن الخامس الميلادي، حتى ضمها الشرقيون لإمبراطوريتهم عام ٤٨٠م، لتنتهي الإمبراطورية الغربية رسميًا، ويبدأ عصر الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ولكن الإمبراطورية الشرقية لم تسيطر على كل الأراضي التي كانت تحت نفوذ الإمبراطورية الغربية، فككل الدول الضعيفة غير المستقرة كانت الإمبراطورية الغربية في نهايات تاريخها تتعرض لهجمات القوط[1] الذين استطاعوا الانتصار على الإمبراطورية الرومانية الغربية في سلسلة من المعارك، وحُكْم العديد من المناطق التابعة لها، ومن ضمنها أيبيريا، بدءًا من عام ٤٠٩ للميلاد.

---

(١) قبائل تنتمي للعرق الجرماني الشرقي.

وصول المسلمين

ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي في الجزيرة العربية، ثم تكونت الدولة الإسلامية التي سرعان ما أصبحت قوة عظمى في العالم في فترة قصيرة، وشأنها شأن كل الدول القوية المسيطرة أخذت بالاتساع ونقل ثقافتها إلى الدول المجاورة، ويورد ابن الأثير الجزري في كتابه «الكامل في التاريخ» أن الدولة الإسلامية قد وصلت زمن الحكم الأموي إلى شمال قارة أفريقيا مطلع القرن الثامن الميلادي، بقيادة حسان بن النعمان الغساني قائد جيوش الخليفة الوليد ابن عبد الملك، والذي عزله عبد العزيز بن مروان - والي مصر - لاحقًا، وولّى مكانه موسى بن نصير، الذي استقر بحكم أفريقية، ثم أكمل الانتصارات الإسلامية، فوصل إلى العديد من جزر البحر الأبيض المتوسط التابعة اليوم لإسبانيا وإيطاليا، ودخل المغرب، ووصل إلى طنجة، التي انتصر فيها وولّى عليها طارق بن زياد، ثم أرسل كونت سبتة «يوليان القوطي» إلى موسى بن نصير يشير عليه بالتوغل في أيبيريا،

وذلك لخلافات بين يوليان و «رودريك» ملك القوط، وعلى إثر الرسالة أمر الوليدُ موسى بعبور البحر واستكشاف أيبيريا قبل دخولها ، فأرسل موسى طريفَ المعافري عام ٧١٠م، والذي نزل على جزيرة «لاس بالوماس» ، ثم عاد بأنباء عن ضعف القوى الأيبيرية ، مما ترتب عليه اتخاذ موسى قرار السيطرة على أيبيريا ، وسرعان ما أرسل موسى جيشًا يقوده طارق بن زياد، والذي انتصر على القوط وسيطر على الأندلس عام ٧١١م، وسميت جزيرة لاس بالوماس بجزيرة طريف، وسمي المضيق البحري الذي يربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي ، والذي عبره طارق بن زياد باسمه؛ مضيق جبل طارق، وهي أسماء ما تزال موجودة إلى يومنا هذا ، وقد خضعت الأندلس بعد السيطرة عليها للحكم الأموي، شأنها شأن الولايات الجديدة ، ولكن الضعف الذي لحق السلطة في دمشق أجبر الأندلس والولايات الأفريقية البعيدة الاعتناء بشؤونها وحدها ، فانفصلت الأندلس عن الحكم الأموي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك.

وسرعان ما انهارت الخلافة الأموية برمتها بعد ذلك بعدة أعـوام، وتحديدًا عـام ٧٥٠ للميلاد، بعد انتصـار أبو العباس في معركـة الزاب على الخليفة الأموي مـروان بن محمد، وقد ترتب علـى هذا الانتصار حُكْم العباسـيين للعالم الإسـلامي، ولكن العباسيين لم يصلوا إلى الأندلس، بل سبقهم إليها الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشـام بن عبد الملك -ويُلقَّب بـ «عبد الرحمن الداخل» أو «صقر قريش»- واستطاع حُكمَها عام ٧٥٦ للميلاد، واستمرت سلالته بالحكم إلى عام ١٠٣١ للميلاد، وهو العام الذي سـقطت فيه الخلافة الأمويـة في الأندلس إثرَ فتن داخلية قضت عليها، وبسـقوط الخلافة الأموية تقسـمت الأندلس إلى دويلات صغيرة، مثل: قرطبة وغرناطة وإشـبيلية وملقة وسرقسـطة وطليطلة، وحكم تلك الدويلات أسـر عربية مختلفـة، عُرِفُـوا بـ «ملـوك الطوائف» إلّا أنّ هـذه الدويلات سـرعان ما بدَأت بالسـقوط الواحدة تلو الأخرى في أيدي الملوك الأوروبيين المتربصين، وكان آخرها غرناطة، وسقطت الأندلس من أيدي العرب نهائيًا عام ١٤٩٢ للميلاد[١].

---

(١) انظـر كتاب الكامل في التاريخ/ الجـزء الرابع لابن الأثير الجزري (طبعة دار الكتب العلمية).

وقد عاش في المجتمع الأندلسي أفرادٌ متعددو الأعراق والأديان،وصلوا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية في فترات مختلفة من التاريخ، فكان فيها العرب والأمازيغ والإسبان، والمسلمون واليهود والنصارى، بالإضافة إلى غيرهم من الأقليات.

تاريخ اليهود في شبه الجزيرة الأيبيرية

الوصول

الرواية الدينية

تقول الرواية الدينية اليهودية إنه في مكان ما من العالم القديم كان هناك منطقة اسمها «ترشيش»،وكانت ترشيش هذه على علاقة تجارية مع اليهود، ومن هنا بدأت التجمعات اليهودية فيها، ويبدو أن هذه المدينةقد تواجدت لفترات طويلة من الزمن، إذ إنها ذُكِرت في العهد القديم منذ زمن النبي سليمان عليه السلام - الذي عاش في القرن العاشر قبل الميلاد- حيث جاء في سفر الملوك الأول ١٠: ٢١ - ٢٣؛ «٢١وَجَمِيعُ آنِيَةِ شُرْبِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ مِنْ ذَهَبٍ، وَجَمِيعُ آنِيَةِ بَيْتِ وَعْرِ لُبْنَانَ مِنْ ذَهَبٍ خَالِصٍ، لاَ فِضَّةٍ، هِيَ لَمْ تُحْسَب

شَيْئًا فِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ. ٢٢لأَنَّهُ كَانَ لِلْمَلِكِ فِي الْبَحْرِ سُفُنُ تَرْشِيشَ مَعَ سُفُنِ حِيرَامَ. فَكَانَتْ سُفُنُ تَرْشِيشَ تَأْتِي مَرَّةً فِي كُلِّ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ. أَتَتْ سُفُنُ تَرْشِيشَ حَامِلَةً ذَهَبًا وَفِضَّةً وَعَاجًا وَقُرُودًا وَطَوَاوِيسَ. ٢٣فَتَعَاظَمَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ عَلَى كُلِّ مُلُوكِ الأَرْضِ فِي الْغِنَى وَالْحِكْمَةِ»، واستمر ذكر ترشيش في قصص لأنبياء اليهود عاشوا حتى القرن السادس قبل الميلاد، فوردت في إشعياء ١٦ : ٢، ١ : ٢٣، ١٤ : ٢٣، ٩ : ٦٠، ١٩ : ٦٦؛ وإرميا ٩ : ١٠؛ وحزقيال ١٢ : ٢٧، كما ذُكِرَت ترشيش في مواضع مختلفة -لم تخرج عن إطارتلك الفترة - من العهد القديم؛ في سفر مزامير[١] ١٠ : ٧٢؛ وسفر يونان ٣ : ١، ٢ : ٤.

واختلف المؤرخون وعلماء الدين اليهود على تحديد المكان الدقيق لترشيش تلك، وكانت إسبانيا بمختلف مدنها هي أحد الأماكن المطروحة كاحتمال لتواجد ترشيش فيها، وقد ناقش «ريتشارد فروند» في كتابه «التنقيب في التاريخ: علم الآثار والدين من أطلانتس إلى الهولوكوست» التفسيراتِ

(١) المزمور الثاني والسبعين منسوب لسليمان، وليس منسوبًا كأغلب المزامير لداوود عليه السلام.

المختلفة لموقع ترشيش، وخلص إلى أن الأصح هو قول المؤرخ الروماني اليهودي يوسيفوس فلافيوس والمؤرخ الروماني «بليني» - واللذان عاشا في القرن الأول الميلادي - أن المكان الذي كانت فيه ترشيش هو جنوب إسبانيا، وأن التفسيرات الخاصة بتواجد ترشيش في أماكن أخرى هي تفسيرات أقل دقة، ظهرت لاحقًا، ومن هذه التفسيرات أن ترشيش هي قرطاج، وهو التفسير الذي بدأ بالظهور في القرن الثالث الميلادي[1].

والجدير بالذكر أن ترشيش جاءت في مواضع أخرى من العهد القديم لتدل على اسم علم، فقد جاء في سفر التكوين ٤:١٠؛ «وَبنو ياوانَ: أَلِيشَةُ وَتَرْشِيشُ وَكِتِّيمُ وَدُودانِيمُ».، وياوان هنا هو ابن «يافث بن نوح»، وهو جد الإغريق بحسب الميثولوجيا اليهودية، وورد في سفر أخبار الأيام الأول ١٠:٧؛ «وَابْنُ يَدِيعَئِيلَ بَلْهَانُ، وَبَنُو بَلْهَانَ: يَعِيشُ وَبَنْيَامِينُ

(١) انظر كتاب التنقيب في التاريخ: علم الآثار والدين من أطلانتس إلى الهولوكوس تلريتشارد فروند (طبعة رومان وليتلفيلد، باللغة الإنجليزية)، ص ٤٦.

وَأَهُودُ وَكَنْعَنَةُ وَزَيْتَانُ وَتَرْشِـيشُ وَأَخِيشَاحَرُ»، وبلهان هنا حسب التوراة هو «بلهان بن يديعئل بن بنيامين بن إسرائيل ابن إسحاق بن إبراهيم»، كماوردت لفظة ترشيش لتشير إلى اسم لأمير فارسي في سفر أستير ١٤ : ١؛ «وَكَانَ الْمُقَرَّبُونَ إِلَيْهِ كَرْشَنَا وَشِـيثَارَ وَأَدْمَاثَا وَتَرْشِيشَ وَمَرَسَ وَمَرْسَنَا وَمَمُوكَانَ، سَـبْعَةَ رُؤَسَاءِ فَارِسَ وَمَادِي الَّذِينَ يَرَوْنَ وَجْهَ الْمَلِكِ وَيَجْلِسُونَ أَوَّلًا فِي الْمُلْكِ».

وهـذه الفرضيـة على وجود اليهود في إسـبانيا في الماضي القديم ضعيفة جـدًا، لاعتمادها الوحيد على المصادر الدينية اليهوديـة، والتي تعرضـت للترجمة والتعديـل لقرون من الزمـن، فضـلًا عن عدم الاتفاق بين مفسـري العهـد القديم علـى مـكان ترشـيش، وبقاء الأمـر في دائـرة الاحتمالات والتفسـيرات، وعلينا أن لا ننسـى العوامل السياسـية التي تسهم كثيرًا في افتراض من هذا النوع، وعلى الرغم من ضعف الفرضيـة الدينية لوجود اليهود في إسـبانيا في فترة التاريخ القديم إلا أن الأمر غير محسـوم بالنفي أيضًا، ليبقى خاضعًا للدراسة والبحث.

الرواية العلمية

لقد ساهم العثور على نقوش قديمة ورد فيها ذكرمدينة ترشيش على عدم اقتصار وجود اسمها على العهد القديم فقط، ليصبح وجودها في العالم القديم مؤكدًا علميًا، ومن تلك النقوش «حجر نورا»، والذي تم العثور عليه في منطقة «نورا» في جزيرة سردينيا التابعة حاليًا لإيطاليا، ويعود النقش الذي عُثِر عليه عام ١٧٧٣ للميلاد إلى القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد، وهو مكتوب باللغة الفينيقية، وفيه كلمة ترشيش، ولكن العثور على هذا النقش لم يسهم في حسم الجدل الدائر حول المكان المعاصرلترشيش، بل ربما عقّد المسألة أكثر، حيث ساعد على ظهور فرضية جديدة مفادها أن ترشيش هي سردينيا[1]، لتبقى صلة ترشيش بإسبانيا محل جدل وافتراض، ولم تُثبَت بشكل قاطع حتى يومنا هذا.

---

(١) انظر ورقة بحثية بعنوان «إضاءة جديدة على التاريخ القديم للمستعمرات الفينيقية» لوليام ألبرايت (منشورة في مجلة الكليات الأمريكية للدراسات الشرقية، باللغة الإنجليزية)، ص ١٤.

السبي البابلي

جـاء الأمر الإلهي لموسـى عليه السلام بالعودة مـع اليهود من مصـر إلى أرض كنعان، فقاد موسـى وهارون عليهما السلام هذه العودة[1]، قال الله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧)﴾، ثم مات موسـى وهـارون في الطريق إلى أرض كنعان، فقاد يوشـع بن نون اليهود، وأكمل بهم نحو أريحا التي سـيطروا عليها[2]،واسـتقروا في أرض كنعان، وبمرور الزمـن كونوا دولتهـم اليهوديـة، التي أنشـأها طالوت[3] واسـتمرت هذه المملكة حتى حكمها رحبعام بن سليمان بن داود عليهما السلام لمدة سـبع عشرة سـنة، إذ انقسمت بعده إلى دولتين، وقد ذكر الطبري أن منهما دولة شكلتها أبناء يهوذا

(١) انظـر كتـاب البداية والنهايـة/ الجزء الأول لابن كثير الدمشـقي (طبعة مكتبة المعارف)، ص ٢٧٠.

(٢) انظر كتاب تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك/ الجزء الأول لأبي جعفر الطبري (طبعة دار المعارف)، ص ٤٣٥.

(٣) طالوت جاء اسمه في العهد القديم شاول.

وبنيامين، والدولة الأخرى تشكلت من باقي الأسباط[1]، بينما ذكر ابن الأثير أن الدولة الأولى تشكلت من أبناء سبط يهوذا، والدولة الأخرى كونها أبناء باقي الأسباط الإثنى عشر[2]، وعلى أية حال، فقد انقسمت الدولة إلى دولتين؛ مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب.

وبانقسام الدولة اليهودية أصبحت أكثر ضعفًا، فقام الملك البابلي «بختنصر» بغزو أو رسالم - اسم القدس في تلك الفترة التاريخية - وهي القصة التي ذكرها المؤرخون العرب؛ فأوردها ابن كثير[3]، والطبري[4]، وابن الأثير[5]،

---

(١) انظر كتاب تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك/ الجزء الأول لأبي جعفر الطبري (طبعة دار المعارف)، ص ٥١٧.

(٢) انظر كتاب الكامل في التاريخ/ الجزء الأول لابن الأثير الجزري (طبعة دار الكتب العلمية)، ص ١٩١.

(٣) انظر كتاب البداية والنهاية/ الجزء الثاني لابن كثير الدمشقي (طبعة مكتبة المعارف)، ص ٣٩.

(٤) انظر كتاب تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك/ الجزء الأول لأبي جعفر الطبري (طبعة دار المعارف)، ص ٥٣٨.

(٥) انظر كتاب الكامل في التاريخ/ الجزء الأول لابن الأثير الجزري (طبعة دار الكتب العلمية)، ص ٢٠٠.

بأسـباب مختلفة، ومهما كانت أسباب هذا الغزو فما يهمنا في بحثنـا هذا هو نتيجته، حيث ترتب عليه سـبي اليهود إلى بابـل كعبيد، فيما عُرِفَ تاريخيًا بـ «السـبي البابلي»، وقد نقل ابن كثير عن ابن الكلبي أن بني إسرائيل تفرقوا إلى الحجاز ويثرب ووادي القرى ومصر[١]، وبقي اليهود خارج أرض كنعان حتى أعادهم الملك الفارسي «كيرش» – أو قورش في مصادر أخرى – في القرن السـادس قبـل الميلاد إليها بعد أكثر من ١٠٠ سنة من السبي[٢]، وقد سردنا هنا قصة السبي البابلي لبِيان أن اليهود استقروا في أرض كنعان ولم يخرجوا منها بشـكل جماعي ومؤثرقبل السـبي البابلي إلا لأغراض تجاريـة أو دينية فقط، أما اسـتقرارهم خـارج هذه المنطقة الجغرافية فقد بدأ بتشـريدهم وسـبيهم إلى بابل، وغالبًا ما كان اسـتقرارهم وقتهـا في البلاد القريبة، مثل بلاد الشـام

---

(١) انظـر كتاب البدايـة والنهاية/ الجزء الثاني لابن كثير الدمشـقي (طبعة مكتبة المعارف)، ص ٣٩.

(٢) انظر كتاب تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك/ الجزء الأول لأبي جعفر الطـبري (طبعة دار المعارف)، ص. ٥٤٤ وكتـاب الكامل في التاريخ/ الجزء الأول لابن الأثير الجزري (طبعة دار الكتب العلمية)، ص ٢٠٤.

ومصر، وكان احتمال وصولهم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية واستقرارهم كجماعات ضئيلًا في تلك الفترة، وذلك بسبب البعد الجغرافي بين بلاد كنعان وأيبيريا.

وبعد عودة اليهود مع قورش واستقرارهم في بلاد كنعان لم يكوّنوا دولة ولم يتمتعوا بالحكم الذاتي، بل أصبحوا أقلية بين الشعوب السامية الموجودة في بلاد الشام في ذلك الوقت، مثل؛ الآراميين والعمونيين والمؤابيين، حيث حكم الفرس بلاد كنعان والمناطق المجاورة، وحافظوا على علاقات طيبة مع اليهود[١]، وبقي هذا وضع اليهود حتى مجيء الروم واستقرار أمر بلاد كنعان في أيديهم بعد صراعات مع الإغريق، يقول ابن الأثير: «ولم يزل بنو إسرائيل ببيت المقدس وعادوا وكثروا حتى غلبت عليهم الروم زمن ملوك الطوائف فلم يكن لهم بعد ذلك جماعة»[٢].

---

(١) انظر كتاب قصة الحضارة/ المجلد الأول: الجزء الثاني لويل واريل ديورانت (طبعة دار الجيل، مترجم إلى العربية)، ص ٣٦٥.

(٢) انظر كتاب الكامل في التاريخ/ الجزء الأول لابن الأثير الجزري (طبعة دار الكتب العلمية)، ص ٢٠٦.

تحت حكم الروم

وفي عهد حكم الروم لأورسالم، تعرضت المدينة لخراب آخر على يد «طيطوس» - أو تيتوس - عام ٧٠ للميلاد، والذي أرسله أبوه الإمبراطور «اسفسيانوس» لهدم المدينة غضبًا لقتل المسيح[١]،وقد ورد ذكر تيتوس في الموسوعة اليهودية، حيث جاء فيها أنه دمر أورسالم عام ٧٠ للميلاد، ولكن الأسباب الواردة فى الموسوعة لهذا التدمير مختلفة تمامًا عما ذكره ابن الأثير والطبري وغيرهم من المؤرخين المسلمين، إذ تحدثت الموسوعة عن ثورات يهودية كانت سببًا مباشرًا لهذا التدمير، وتجاهلت تمامًا فرضية انتقام تيتوس لمقتل المسيح، ولم تشر إليها مطلقًا[٢]، والجدير بالذكر أن فرضية قتل اليهود لعيسى عليه السلام لم ترد فقط عند مؤرخي المسلمين، بل كانت واسعة الانتشار حتى وصلت عامة المسيحيين في

(١) انظر كتاب الكامل في التاريخ/ الجزء الأول لابن الأثير الجزري (طبعة دار الكتب العلمية)، ص ٢٤٧ وكتاب تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك/ الجزء الأول لأبي جعفر الطبري (طبعة دار المعارف)، ص ٦٠٦.

(٢) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء التاسع عشر لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٧٤٣.

أرجاء العالم، والذين يتداولـون حتى يومنا هذا لفظة «قَتَلة الإله» للإشـارة إلى اليهـود، وهو ما خلـق التوتر لقرون في العلاقات المسيحية اليهودية،حتى أصدر المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٥م برئاسـة البابا «بولس السادس» مرسومًا جـاء فيه: «صحيـح أن السـلطات اليهوديـة وأولئك الذين اتبعوا قيادتهم قد ضغطوا من أجل موت المسـيح؛ومع ذلك، فـإن ما حدث له لا يمكـن أن يتم توجيهه كاتهام ضد جميع اليهود، وبدون تمييز، ولا ضد اليهود اليوم. على الرغم من أن الكنيسة هي شـعب الله الجديد، إلا أنه يجب ألا يُعرَض اليهود على أنهم مرفوضون أو ملعونون من الله، كما لو أن هذا قد جاء من الكتاب المقدس. يجب على الجميع أن يروا ذلك، وبنـاءً عليه، لا يجب تعليم أي شـيء لا يتوافق مع حقيقة الإنجيل وروح المسـيح في الأعمال الكنسية أو في الوعظ بكلمة الله»[1]، وما جاء في المرسـوم لم يقم بتبرئة يهود أورسالم من

---

(١) انظـر الجزء الخاص بالمجمع الفاتيكاني الثاني على الموقع الرسمي للفاتيكان:

(http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decl_19651028_nostra-aetate_en.html)

تهمة قتل عيسى عليه السلام، بل أدانهم، ولكنه أشار إلى عدم جواز تعميم التهمة على كل اليهود، وإلى وجوب فصل إدانة اليهود في ذلك الزمان عن إدانة اليهود المعاصرين، بمعنى أنها دعوة للتسامح بين الديانتين وليست تبرئة من تهمة قديمة، وفي القرآن الكريم ذكر صريح لافتخار اليهود بقتلهم عيسى عليه السلام، جاء في سورة النساء: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾، ونحن هنا لسنا

بصـــدد إعادة تقييم العلاقات المســيحية اليهودية المعاصرة، ولا الدعوة للبغضاء بــين أتباع الديانات الأخرى، ولا تقديم خطاب قانوني في مسألة قتل اليهود لعيسى عليه السلام، بل نحاول أن نفهم السبب الحقيقي لسخط الرومان على يهود أورسالم، وهدم تيتوس للمدينة، ونتساءل عن عدم ذكر هذا السبب في الموسوعة اليهودية، حتى ولو لم يعدُ كونه فرضية من وجهة نظر واضعي الموسوعة.

وقد أعقب هدم تيتوس لأورســالم تخريبًــا رومانيًا آخر للمدينــة، حيث دمرها «اندريانــوس» - أو هادريان - عام ١٣٥م، وقتــل اليهود والنصارى، وغــير اسمها إلى «أيليا»، وجــاء بالروم واليونان ليســكنوها[1]، وقــد ترتب على هدم تيتوس لأورســالم وتخريب اندريانوس لهــا هجرةٌ أخرى لليهــود منها، وهي موجة الهجرة الأكــبر في التاريخ نحو مدن البحر الأبيض المتوســط، ومنها المدن الأيبيرية بطبيعة الحــال، وعلى أثر تلك الهجرة، اســتقر اليهود وانتشــروا

(١) انظــر كتــاب الكامل في التاريخ/ الجــزء الأول لابن الأثير الجزري (طبعة دار الكتب العلمية)، ص ٢٥٠.

في أوروبا إلى يومنا هذا، وقد مثل هذا العصر أول خروج حقيقي ومهم لليهود، وأول استقرار مؤثر لهم في أيبيريا، التي كان يسيطر عليها الكلت - قبائل هند وأوروبية - في تلك الفترة، وكما ذكرنا سابقًا، فقد توسع نفوذ الرومان وأصبحت إمبراطوريتهم أكبر حجمًا حتى وصلت أيبيريا في القرن الثاني للميلاد، وما لبث القوط أن سيطروا على شبه الجزيرة الأيبيرية مطلع القرن الخامس.

تحت حكم القوط

صوّر «إلياس ليندو» في كتابه «تاريخ يهود إسبانيا والبرتغال: منذ أزمانهم الأولى حتى طردهم الأخير من تلك الممالك وشتاتهم اللاحق» حياةَ اليهود تحت الحكم القوطي، وشرح وضعهم في عهد كل حاكم قوطي، فذكر أن الملك «سيسيبوت» (٦١٢ - ٦٢١م) أجبر اليهود على الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية، ونفى من خالف ذلك القرار خارج البلاد، فهرب الكثير من اليهود إلى «غاول» - كان

يحكمهـــا الميروفينجين[1] في ذلك الوقت- وأفريقيا، وسُجِنَ آخـــرون، ثم جـــاء «ريكارد الثاني»، الـــذي لم تتجاوز فترة حكمه الشهرين، ليعقبه «ســـوينثيلا» (٦٢١ - ٦٣١م) على العـــرش الأيبيري، والذي كانت فترة حكمه فترة مســـتقرة لليهود، حيـــث حاول إصلاح الأمور والســـماح لليهود الذين اعتنقوا المســـيحية قسرًا في عهد سيسيبوت بالعودة لديانتهم اليهودية، ولكن في عام ٦٣١م قام الملك «سيســـيناند» (٦٣١ - ٦٣٥م) بعزل الملك سوينثيلا، وسيطر على الحكم، وفي عهده انعقد مَجْمَع طليطلة الرابع عام ٦٣١م، والذي صدرت بموجبه تعليمات مشددة لضمان عدم رجوع اليهود لديانتهم، وصلت إلى حد فصلهم عـــن أبنائهم، ووضع أولئك الأبناء في أديرة أو تربيتهم «مع رجال أو نساء مسيحيين يخشون الله»، وفي عام ٦٨٧م جـــاء إلى الحكم الملك «إيجيـــكا»، والذي عانى اليهود طيلة خمسة وعشـــرين عامًا من حكمه، إذ أجبرَ اليهود على بيع كل ممتلكاتهم للدولة، حتى قام اليهود بإضراب مفتوح

(١) هم ســـلالة مـــن الفرنكيـــين أو الفرنجـــة، والذين ينتمـــون للعرق الجرماني الغربي.

احتجاجًا على أوضاعهم، وهو ما انتهى بسفك دمائهم وأخْذ الكثير منهم كعبيد.

واستمر ليندو بشرح معاناة اليهود تحت حكم القوط، وقام بترجمة وإلحاق القوانين الصادرة بحقهم في القانون القوطي، وفي مجامع طليطلة المتتالية؛ السادس والثامن والتاسع والعاشر والثاني عشر والسادس عشر والسابع عشر، وفصّل تشريعاتها التي تمس حريات المجتمع اليهودي بمختلف أبعاده: السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والتعليمية، مثل: عدم السماح لهم بالاحتفال في مناسباتهم الدينية، ومنعهم من التملك في عدة فترات زمنية، وعدم السماح لهم بزواج الأقارب حتى الدرجة السادسة[١].

لم يختلف تصوير ليندو لحياة اليهود تحت حكم القوط عن المنهج الذي اتبعته الموسوعة اليهودية، حيث البحث عن

(١) انظر كتاب «تاريخ يهود إسبانيا والبرتغال: منذ أزمانهم الأولى حتى طردهم الأخير من تلك الممالك وشتاتهم اللاحق(مع ترجمة كاملة لكل القوانين التي تخصهم خلال إقامتهم الطويلة في شبه الجزيرة الأيبيرية)» لإلياس ليندو (طبعة لونغمان، براون، غرين ولونغمانز، باللغة الإنجليزية).

الاضطهاد واجتزائه من سياقه، وعدم ذكر الأسباب المباشرة له، لينهي ليندو سرده تاركًا الكثير من الأسئلة العالقة في ذهن القارئ، والكثير من الأمور الغامضة المبهمة، كما أن ليندو ذكر القوانين الصادرة بحق اليهود تحت حكم القوط، ولكنه تجاهل الكثير من الأمور، ومنها أنّ هذه القوانين لم تكن ضد اليهود فقط، بل كانت ضد كل الأقليات الدينية المختلفة، فلم يتم استهداف اليهود لأنهم يهود فقط.

وعلى الرغم من أننا ما زلنا نؤكد على التحيز في الطرح التاريخي لمسألة اليهود، والمحاولة الدائمة على تصويرهم كمضطَهَدين، واجتزاء جزء معين من قصتهم من سياقه، وتضخيمه، والتركيز عليه أكاديميًا وإعلاميًا وشعبويًا، وعدم ذكر الأسباب المباشرة لهذا الاضطهاد، إلا أن وجود كل هذه القوانين الموثّقة - وبغض النظر عن أسبابها - تلخص لنا حال اليهود تحت حكم القوط، وتؤكد لنا الوضع الصعب الذي كان يعانيه المجتمع اليهودي الأيبيري في تلك الفترة من الزمن.

الفصل الثاني
مجتمع اليهود في الأندلس

علاقة اليهود بالمسلمين القادمين إلى أيبيريا

عاش يهود أيبيريا حياة مقيتة فرضها عليهم القوط، ومن الطبيعي أن تشكل هذه الظروف الحياتيةدافعًا لدى المجتمع اليهودي لرفض هذا الحكم القوطي المصادِر لحقوقهم - حتى وإن تملكهم الخوف إلى درجة عدم إعلانهم الصريح لهذا الرفض- وخصوصًا أن القوط ليسوا أهل البلد الأصليين، وليس بينهم وبين يهود أيبيريا صلات دم قوية، ولكن إلى أي حد قد يصل هذا الدافع باليهود؟ هل يصل بهم مثلًا لمساعدة قوة خارجية -كالعرب أو غيرهم- على السيطرة على أيبيريا؟ لقد كانت مساعدة اليهود للعرب القادمين إلى أيبيريا محلَ جدل في الأكاديميا المعاصرة، إذ يرى فريق من الباحثين أن اليهود لم يساعدوا العرب، ويحتجون بعدم ورود ذلك في

المصادر التاريخية العربية، وبالفعل فلم يرد لهذا ذكر لدى مؤرخي العرب القدماء، ولكنهم لم ينفوه أيضًا، وعدم الذكر لا يُعتبر شاهدًا على النفي، لذلك فهذا الرأي يعتبر ضعيفًا، وتنقصه الأدلة العلمية، وقد رأى باحثون آخرون أن العرب استعانوا باليهود فعلًا عند دخولهم الأندلس، فقال محمد بحر عبد المجيد في كتابه «اليهود في الأندلس»: «وقد وجد المسلمون من اليهود المستعبدين مساعدة فعالة كانوا في أشد الحاجة إليها وهم يتقدمون في أرض لا يعرفون عنها الكثير، وكلما دخلوا مدينة حرروا يهودها وفي مقابل ذلك كان اليهود يعرضون على قائد الجيش الإسلامي خدماتهم، فكثيرًا ما كان يوكل قائد الجيش إلى اليهود حراسة المدن المفتوحة وتأمينها تحت إمرة عدد قليل من الجنود المسلمين»[1].

وبصرف النظر عن حقيقة مساعدة اليهود من عدمها للمسلمين، فقد بدأ يهود الأندلس مرحلة جديدة من تاريخهم، تحت الحكم الإسلامي الجديد الذي حل محل

---

(١) انظر كتاب «اليهود في الأندلس» لمحمد بحر عبد المجيد (طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر)، ص ٢٠.

الحكـم القوطـي، وفي معـرض دراسـتنا للشـعر العبري، والتي هي غاية هذا البـاب، يهمنا أن نعرف مظاهر الحياة السياسـية والاقتصادية لليهود في هذه الفترة، إيمانًا منا أنّ الشـعر - والفن عمومًا - لم يكن يومًـا بمعزل عن المجتمع الذي ينتجه، بل إن تطور الشـعر في أي مجتمع يعتمد على تحضر المجتمع وتطوره، فالشعر متغير تابع، يحتاج تطوره لإدارةَ سياسية حاذقة ومستقرة، ثم اكتفاء اقتصاديّ، ليأتي بعدهـا التفكـير بالأمـور الثانوية؛ مثل الشـعر، فالإدارة السياسية هي التي تعطي الفرد إحساسًا بالأمان والطمأنينة، وبأنّ علاقتـه بالآخرين منظمة ويحكمهـا قوانين وقواعد، وبالتالـي فإنه سـيدخر ذلك المجهود والوقـت الذي يبذله الأفراد في المجتمعات البدائية لحماية أنفسـهم بأنفسـهم، وخير مثـال على ذلك المجتمعات القبلية التي لم تصل فعلًا لمفهوم الدولة، والتي ينشـغل فيها الأفراد بتأمين أنفسـهم وزيادة مَنَعَتِهِم عن أي فنٍ أو علم.

وبعد أن يسـتقر الأفراد ويضمنون أمنهـم يبدأون في التفكير بتحسين مستوى معيشتهم، ليتحول الجزء الأكبر من ذلك الوقت

المستهلَك في حماية النفس إلى انخراط في نشاط اقتصادي يضمن مستوى معيشي مناسب للأفراد ومعيليهم، ولا شك أن الذهن والجسد المشغولين طوال الوقت بقوت اليوم لن ينتجا فنًا إلا في استثناءات نادرة لا يمكن بأي حال تعميمها على المجتمع[1]، فهل وصل المجتمع اليهودي في الأندلس إلى تلك الدرجة من التحضر التي تجعل أفراده جاهزين للتفكير في الشعر؟

أسباب التحضر في المجتمع اليهودي في الأندلس:

استقرار السلطة السياسية

تناول المؤرخ «شلومو دوف غواتين» في كتابه «مجتمع البحر الأبيض المتوسط: مجتمعات اليهود في العالم كما صورتها وثائق جنيزة[2] القاهرة» حياةَ اليهود بمختلف

(١) انظر كتابنا «صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارة والثقافة» (طبعة دار المعارف)، ص ١٠٥.

(٢) وثائق جنيزة القاهرة هي مجموعة مكونة من ٣٠٠ ألف وثيقة، تم العثور عليها في كنيس ابن عزرا في الفسطاط في القرن الثامن عشر، وهي وثائق تشير لحياة اليهود بين القرنين التاسع والتاسع عشر الميلاديين في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا، والوثائق موجودة اليوم في العديد من كبرى الجامعات العالمية، مثل جامعة كامبريدج.

جوانبها، ومنها الجانب السياسي، ووضح أن يهود الأندلس عاشوا حياة سياسية منظمة، وكانوا تابعين للسلطة المسلمة المحلية، ولكنهم في الوقت نفسه منظّمين تنظيمًا دينيًا يربطهم ببقية اليهود في العالم، أي أن اليهود كان لهم حكم ثيوقراطي خارجي يُنَظم أمورهم، ويربطهم باليهود في بقاع مختلفة من الأرض، وهذا بالطبع لم يكن ليتم لولا سماحة وتسهيل الحكومة المحلية المسلمة صاحبة السلطة الأولى على يهود الأندلس، والتي كانت تعزز سلطة رئيس اليشيفا – الغاون – وتساعده في تنفيذ قراراته إذا اقتضى الأمر، وتقرب قادته المحليين وتعطيهم المناصب السياسية القيادية في بعض الأحيان، وقد كانت السلطة اليهودية الأعلى عالميًا تُدعى «يشيفا»، وهي كلمة تعني الأكاديمية، ووظائفها سياسية وتعليمية وقضائية، ولم ينشأ هذا النظام في زمان الأندلس، بل هو موجود منذ القرن الثالث الميلادي، وفي وقت الحكم الإسلامي للأندلس كان هناك ثلاثة أماكن لليشيفا في العالم؛ اثنين في العراق، وواحد في فلسطين، وقد كان الثلاثة مختلفين في شعائرهم، لذلك كانت لهم كنس منفصلة؛ الكنيس البابلي الشرقي، والكنيس الفلسطيني الغربي، وكانت

هناك مجموعات يهودية في العالم -وليس فقط في الأندلس - لا تعترف بسلطة اليشيفا ولكنها متعاونة مع المجتمع اليهودي؛ وهم القَرّائون، والسامريون، والقرائون هم الذين يؤمنون بالتوراة ولا يؤمنون بالتلمود، علمًا بأن التوراة تمثل أول خمسة أسفار فقط من العهد القديم، وما تبقى من العهد القديم يمثل التلمود، والسامريون أيضًا يؤمنون بالتوراة فقط، ولكن التوراة التي يؤمن بها السامريون تختلف عن توراة الحاخاميين، والحاخاميون هم الذين يشكلون غالبية اليهود اليوم، وفي زمان الأندلس أيضًا.

ورئيس اليشيفا يُدعى «غاون»، ولديه ممثلون إقليميون ومحليون في كل بلد أو منطقة، وهذا الممثل يُسَمى «ناغيد»، أو رئيس اليهود، والذي يُناط به تجميع اليهود المحليين ومنع تفرقهم، والحفاظ على تقاليدهم وحقوقهم، والقيام بأمورهم، فكان ينظم التعليم، ويبني المعاهد ويعطي الألقاب الأكاديمية، وكان التعليم في ذلك الوقت دينيًا، ودنيويًا، والأخير ينقسم إلى فلسفي - علمي، وأدبي - إداري، وكان رئيس اليهود ينظم أمور الخدمة الاجتماعية، مثل تنظيم

وإيصـال المسـاعدات الماليــة والعينية، كمـا كان من مهامه تنظيم الأمور الدينية، مثل بناء وتحديث دور العبادة، وكان رئيس اليهود ينظم مهامه تلك عن طريق أبرشـيات منتشرة في عــدة أماكن، وقد انتهى لقب الناغيـد في الأندلس نهائيًا بمقتل «يوســف بن شامويل هاليفي» عام ١٠٦٦م، وبالإضافة إلى الغـاون – القائد الديني لجماعات اليهود في العالم – فقد كان هناك قائد دنيوي أيضًا، يُدعى «رئيس الشتات»، ولكنه كان محدود السـلطات، ويكاد يكون رمزيًا، وغالبًا ما يكون من نســل داود ﵇، وقد كانت بغداد مــكان تواجد رئيس الشتات في القرون التي حكم فيها المسلمون الأندلس.

الاستقرار الاقتصادي

وصــف أحمد بن محمــد المقري التلمســاني في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلــس الرطيب» نقلًا عن كتاب «ذكر بلاد الأندلــس» لمؤلف مجهول جزءًا من موارد وخيرات الأندلس، فقال: «يوجد في ناحية دلاية من إقليم البشرة عود الألنجوج، لا يفوقــه العود الهنــدي ذكاء وعطر رائحة، وقد ســيق منه

إلى خيران الصقلبي صاحب المرية، وأن أصل منبته كان بين أحجار هنالك، وبأكشونبة جبل كثيرا ما يتضوع، ريحه ريح العود الذكي إذا أرسلت فيه النار، وببحر شذونة يوجد العنبر الطيب الغربي، وفي جبل منت ليون المحلب، ويوجد بالأندلس القسط الطيب، والسنبل الطيب، والجنطيانة تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق، وهو عقار رفيع، والمر الطيب بقلعة أيوب، وأطيب كهرباء الأرض بشذونة، درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة، وأطيب القرمز قرمز الأندلس، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق، وبناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد، وقد يوجد في غيرها، وعلى مقربة من حصن لورقة من عمل قرطبة معدن البلور، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي يبره، و الحجر البجادي يوجد بناحية مدينة الأشبونة في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا كالسراج، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميورمن كورة مالقة إلا أنه دقيق جدا لا يصلح للاستعمال لصغره، ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بجانة في خندق يعرف

بقرية ناشرة أشكالا مختلفة كأنه مصبوغ، حسن اللون، صبور علـى النار، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير، وحجر الشاذنة بجبل قرطبة كثير، ويستعمل في دلك التذاهيب، وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت، وهو أنفع شيء للحصاة، وحجر المرقشيثا الذهبية في جبال أبذة لا نظير لها في الدنيــا، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها، والمغنيسيا بالأندلس كثير، وكذلك حجر الطلق، ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشــلونة إلا أنه جامــد اللون، ويوجد المرجان بســاحل بيرة مــن عمل المرية، أقل ما لقط منه من شــهر نحو ثمانــين ربعا، ومعدن الذهب بنهــر لاردة يجمع منه كثير، ويجمع أيضا في ساحل الأشــبونة، ومعادن الفضة في الأندلس كثــيرة في كورة تدمير وجبال حمة بجانة، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل، وبأكشــونبة معدن القصدير لا نظير له يشــبه الفضة، وله معادن بناحيــة إفرنجة وليون، ومعــدن الزئبق في جبل البرانس، ومــن هنالك يتجهز به إلى الآفاق، ومعــادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة، ومعدن التوتيا الطبية بســاحل إلبيرة بقرية تســمى بطرنة،

وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس، وبجبال قرطبة توتيا، وليست كالبطرينة، ومعدن الكحل المشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طرطوشة يحمل منها إلى جميع البلاد، ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى، وما ذكرت هنا وإن تكرر بعضه مع ما سبق أو يأتي فهو لجمع النظائر، وما لم نذكره أكثر، والله تعالى أعلم.

ومن خواص طليطلة: أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوس على طول السنين، يتورثها الخلف عن السلف، وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق، وكذلك الصبغ السماوي، انتهى.

وقال المسعودي في «مروج الذهب» بعد كلام ما نصه: والعنبر كثير ببحر الأندلس، يجهز إلى مصر وغيرها، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له شنترين وشذونة، تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهبا، والوقية بالبغدادي وتباع بمصر بعشرة دنانير، وهو عنبر جيد، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء. وبالأندلس معدن عظيم للفضة،

ومعدن للزئبق ليس بالجيد يجهز إلى سائر بلاد الإسلام والكفر، وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل وأصول الطيب خمسة أصناف: المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر، انتهى، وهو وإن تكرر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة، والله تعالى أعلم.

وذكر البعض أنْ في بعض بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهي: الرصاص من زحل، والقصدير الأبيض من المشتري، والحديد من قسم المريخ، والذهب من قسم الشمس، والنحاس من الزهرة، والزئبق من عطارد، والفضة من القمر»[1].

وفي الأندلس كما يذكر التلمساني الكثير من أصناف الفواكه والثمار؛ كالتين والزبيب، والقرمز والمعادن والرخام، والمصنوعات، كالثياب الحريرية والأسِرّة والسكاكين وتجهيزات العرائس والزجاج والفخار والفسيفساء،

(١) انظر كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»/ الجزء الأول لأحمد بن محمد المقري التلمساني (طبعة دار صادر)، ص ١٤٠ - ١٤٤.

والأسلحة[1]، وقد أشار غواتين أن الأندلس كانت الدولة الأبرز في زمانها في إنتاج وتصدير الحرير[2].

ولم يحتكر المسلمون هذه الخيرات التي نعمَت بها الأندلس، بل كانت تعم على المواطنين من جميع الأعراق والأديان، بالإضافة إلى أن المسلمين عند وصولهم وحكمهم لشبه الجزيرة الأيبيرية أعادوا لليهود أملاكهم التي كان القوط قد استولوا عليها، حتى إن محمد بحر قال: إن يهود الأندلس من شدة ثرائهم كانوا يرسلون الأموال إلى يهود أوروبا[3]، وقد أشارت وثائق الجنيزة التي درسها غواتين في الجزء الأول من كتابه المذكور سابقًا إلى الحقوق الاقتصادية

---

(١) انظر كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»/ الجزء الأول لأحمد بن محمد المقري التلمساني (طبعة دار صادر)، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) انظر كتاب «مجتمع البحر الأبيض المتوسط: مجتمعات اليهود في العالم كما صورتها وثائق جنيزة القاهرة»/ الجزء الأول لشلومو دوف غواتين (طبعة مركز الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا، باللغة الإنجليزية)، ص ١٠٢.

(٣) انظر كتاب «اليهود في الأندلس» لمحمد بحر عبد المجيد (طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر)، ص ٢١.

ليهود الأندلس، مثل قدرتهم على التملك، وعلى إنشاء الأعمال التجارية، كما ذكرت تلك الوثائق عدة قصص للشراكة التجارية بين مسلمين ويهود في الأندلس، وأشارت إلى المعاملات التجارية التي كان يُنشئها اليهود، وليس أدل على عدم احتكار فئة للخيرات دون غيرها من وجود طبقة برجوازية يهودية، وكان غواتين قد أشار إلى رسالة ودية كتبها أحد وجهاء غرناطة اليهود لصديق له - وجيه آخر - زار القاهرة عام ١١٣٠م[1]، وبالتأكيد لم يكن الجميع في الأندلس أغنياء، لا اليهود ولا غيرهم، وكان المجتمع يحتوي على أفراد من مختلف الطبقات الاقتصادية.

وفي وثائق جنيزة القاهرة ما يدل على أن الحياة الاقتصادية ليهود الأندلس كانت منظمة أيضًا شأنها شأن الحياة السياسية، فكان هناك ما عُرِف بـ «دار الوكالة»،

---

(١) انظر كتاب «مجتمع البحر الأبيض المتوسط: مجتمعات اليهود في العالم كما صورتها وثائق جنيزة القاهرة»/ الجزء الأول لشلومو دوف غواتين (طبعة مركز الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا، باللغة الإنجليزية)، ص ٧٧.

والتي تقوم بمهام المخزن أو البورصة أو البنك أو كُتّاب العدل أو البريد أو جميعها معًا، ويقوم عليها وكيل عن التجار اليهود، والذين كانوا يتاجرون بسلع أساسية؛ مثل الزيت والأرز والسكر، وسلع ثانوية؛ مثل السجاد، وحتى سلع كمالية فاخرة مثل؛ المجوهرات والحلي[1].

وكان في حياة يهود الأندلس الكثير من الرفاهية، فكانوا يزينون الساحات الداخلية لمنازلهم غالبًا بالنوافير، وأحيانًا بالحدائق[2]، وكثيرًا ما أشار غواتين في الجزء الثاني من كتابه إلى الملابس الفاخرة والملونة، والحلي والمجوهرات التي كان اليهود يرتدونها ويتزينون بها، ويؤكد غواتين

---

(١) انظر كتاب «مجتمع البحر الأبيض المتوسط: مجتمعات اليهود في العالم كما صورتها وثائق جنيزة القاهرة»/ الجزء الثاني لشلومو دوف غواتين (طبعة مركز الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا، باللغة الإنجليزية)، ص ٢٦.

(٢) انظر كتاب «مجتمع البحر الأبيض المتوسط: مجتمعات اليهود في العالم كما صورتها وثائق جنيزة القاهرة»/ الجزء الثاني لشلومو دوف غواتين (طبعة مركز الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا، باللغة الإنجليزية)، ص ٤٨.

أن أغلب المصاغ التي يمتلكونها كانت ذهبية، حيث كان الذهب في الأندلس أكثر انتشارًا من الفضة، التي كان يُصنَع منها بعض المجوهرات فقط، على الرغم من ارتفاع سعر الذهب كثيرًا إذا ما قورِن بالفضة[1]، وكانت نساء الطبقة اليهودية البرجوازية تتزين باللآلئ، بل إن المرأة اليهودية الأندلسية عُرِفَت لدى التجار المصريين بصعوبة ذوقها فيما يخص اللآلئ[2]، وصعوبة ذوقها هذه إنما تشير إلىقدرتها المادية على الاختيار واقتناء ما تريد.

لقد تمتعت الأندلس بالموارد الثمينة والخيرات الوفيرة، وكان لليهود فيها حياة اقتصادية منظمة، وكانوا خاضعين

---

(١) انظر كتاب «مجتمع البحر الأبيض المتوسط: مجتمعات اليهود في العالم كما صورتها وثائق جنيزة القاهرة»/ الجزء الثاني لشلومو دوف غواتين (طبعة مركز الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا، باللغة الإنجليزية)، ص ٢٠٢.

(٢) انظر كتاب «مجتمع البحر الأبيض المتوسط: مجتمعات اليهود في العالم كما صورتها وثائق جنيزة القاهرة»/ الجزء الثاني لشلومو دوف غواتين (طبعة مركز الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا، باللغة الإنجليزية)، ص ٢٠٤.

للقوانين الاقتصادية للدولة، دون تمييز ضدهم، وهو ما أوصلهم إلى رفاهية مادية، حيث كانوا قادرين على اقتناء الذهب واللآلئ وغيرها من المعادن الثمينة، كما كان منهم الأثرياء والوجهاء وأصحاب المناصب في الدولة، فلم ينصرف تفكيرهم نحو الاحتياجات المادية الأساسية من مأكل ومشرب،وكان ذهنهم جاهزًا للانصراف نحو التفكير بالعلم والأدب.

العلم والأدب

أنتج هذا الوضع الحضاري المتقدم ليهود الأندلس بيئة خصبة للتطور الفني والعلمي، وكان نتاجه الكثير من الأسماء صاحبة التأثير في تاريخ يهود إسبانيا، من فلاسفة ونحويين وشعراء وأدباء ومترجمين وموسيقيين وعلماء دين، وهي أسماء نجدها في الكثير من كتب التاريخ هنا وهناك، نذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر؛ أورد عبد المنعم الحفني في «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية»الطبيبَ والفيلسوف والشاعر يهوذا هاليفي صاحب كتاب الفلسفة «الحجة والدليل

في نصـــرة الدين الذليل»، وهو مكتوب باللغة العربية[1]، بل من الملاحظ الســجع في اسمه على طريقـــة الكتب العربية في ذلك الوقت، وأورد أيضًا الفيلسوف والنحوي والشاعر شلومو ابن جبيرول، وهو صاحب كتاب الفلســفة «ينبوع الحياة»، وكتاب الأخلاق «إصلاح الأخلاق»[2]، وأشــار «إلياهو أشتور» في كتابه «يـهود إسبانيا المسلمة» إلى الشاعر والنحوي «مناحم ابن سروق»، وهو صاحب أول معجم في اللغة العبرية يحتوي علـــى ألفاظ الكتاب المقدس، واسمــه «محبريت»[3]، كما نجد الشــاعر والموســيقي «إســحاق بن شمعون»، والذي ذكره أبو الحسن علي بن موسى بن ســعيد المغربي الأندلسي في كتابه «المُغرب في حلى المغرب»، ووصفه بأنه «أحد عجائب الزمان

---

(١) انظر كتاب «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية» لعبد المنعم الحفني (طبعة مكتبة مدبولي)، ص ١٨٧.

(٢) انظر كتاب «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية» لعبد المنعم الحفني (طبعة مكتبة مدبولي)، ص ٢٧.

(٣) انظر كتاب «يـهود إســبانيا المســلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشــتور (طبعة جمعية النشر اليهودي، باللغة الإنجليزية)، ص ٢٤٧.

في الاقتــدار على الألحان»، ومن شــعره ما نقله أبو ســعيد المغربي قوله[1]:

قُـمْ هاتِ كأسَكَ فالنَّعيمُ قدْ اتَّسَقْ
والعـودُ عنْ داعي المسرَّةِ قَدْ نَطَقْ
ولديـكَ مَنْ حَثَّ الكؤوسَ أزاهرًا
في الخزِّ يمرحُ كالأراكةِ في الوَرَقْ
والـزَّهْـرُ زُهرٌ والرِّياضُ سماؤُها
والفجـرُ نَهـرٌ والشَّقائقُ كـالشَّفَقْ

وذكــر محمد بحــر «ســليمانَ بــن صقبل»، وهــو الذي أدخل فــن المقامة على الأدب المكتــوب باللغة العبرية لأول مــرة في تاريخــه[2]، وذكر «ســيمون دوبونــوف» في كتابه «تاريــخ اليهود من الإمبراطوريــة الرومانية إلى فترة بداية العصور الوســطى» العديدَ من اليهود الأندلســيين المؤثرين،

---

(١) انظر كتاب «المُغرب في حلى المغرب» لعلي بن موسى المغربي/ الجزء الأول (طبعة دار المعارف)، ص ١٢٧.

(٢) انظــر كتاب « اليهود في الأندلــس» لمحمد بحر عبد المجيد (طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر)، ص ٧٩.

مثل «إسحاق الفاسي»، صاحب الكتاب الديني «التلمود المختصر»[1]، والمؤرخ ذائع الصيت «إبراهيم بن داود»، صاحب كتاب «هاكابّالا»، أو كتاب التقاليد[2].

لقد كانت تلك الحقبة في تاريخ يهود أيبيريا حقبة ثرية، ظهر فيها العديد من الرموز الفنية والعلمية، الذين قاموابتأليف الكثيرمما يُعَد الآن مصادرًاوأمهاتٍ للكتب، ولا عجب أن أكثر هذه الكتب مكتوبة بالعربية، فقد كانت العربية لغة العلم والأدب في العالم في ذلك الزمن، وإنّ الأضعف حضاريًا يرى ما للقوي من مظاهر للقوة فيقلدها، ولا يستطيع العامة معرفة أن المظاهرَ نتائجُ لهذه القوة، وليست أسبابا، بينما يفرّق الخاصة بين ما استقل من الأسباب وما تبع من المظاهر، ولذلك يقلّد العامةُ المظاهر، ويتعلم الخاصةُ

---

(١) انظر كتاب «تاريخ اليهود من الإمبراطورية الرومانية إلى فترة بداية العصور الوسطى»/ الجزء الثاني لسيمون دوبونوف (طبعة توماس يوسيلوف المتحدة، باللغة الإنجليزية)، ص ٦٤٤.

(٢) انظر كتاب «تاريخ اليهود من الإمبراطورية الرومانية إلى فترة بداية العصور الوسطى»/ الجزء الثالث لسيمون دوبونوف (طبعة توماس يوسيلوف المتحدة، باللغة الإنجليزية)، ص ٦.

الأسباب، وقد كان عامة يهود الأندلس يسمون مؤسساتهم - غالبًا - بأسماءَ عربية، ويغنون الأغاني العربية في الأفراح، ويستخدمون الأمثال العربية، ويتحدثون العبرية بلكنة وإيقاع عربيين، ويختالون بحشوها بالمفردات العربية، أما الخاصة فقد أدركوا الأسباب، وتأثروا بها، وطبقوها في علمهم وأدبهم، فكان نتاجهم العلمي والفلسفي والأدبي مكتوبًا أغلبه باللغة العربية، فتأثروا في كتبهم بأفكار فلاسفة المسلمين وعلمائهم، مثل: «ابن رشد» و«الغزالي» و«ابن حزم» و«المجريطي»، بل واستشهدوا حتى بالقرآن والسنة النبوية أيضًا، وكان الأسلوب العربي في اختيار العنوان، وكتابة المقدمة، وتقسيم الكتاب حاضرًا بقوة للدرجة التي لا نستطيع التفريق فيها بين كتب يهود الأندلس وكتب مسلميها، حتى إن بعض الكتب التي عُرِف صاحبها حديثًا - وخصوصًا بعد اكتشاف وثائق جنيزة القاهرة- كان يُعتقَد أنها لمؤلفين مسلمين، لأسلوبها وطريقة كتابتها، ولكن اتضح لاحقًا أنها لكُتّاب يهود.

نظرة المؤرخين اليهود لحال المجتمع اليهودي في الأندلس

وصف المؤرخُ الأدبي الألماني اليهودي «رودولف كايسـر» في كتابه «حياة وزمن يهوذا هاليفي» لسـانَ حال اليهود لدى مجيء المسلمين وسيطرتهم على الأندلس، فقال: «بدا التغير في مصـير اليهود تحت الحكم الإسـلامي لهم كمعجزة. هل جاء المسـيا؟[1] هل اسمه محمد؟»[2]، لقـد اعتبر اليهود أن المسـلمين بمثابة المخلص الذين ينتظرونه، ولا شك أن إنزال يهود الأندلس للمسـلمين هـذه المنزلة لديهم لم يأتِ من أمر يسـير، وأن تمثيل اليهود المسـلمين برمزهم الديني المرتبط بالإنقـاذ والخـلاص هو نتيجة لمـا رأوه من عـدل وإنصاف وإقرار للحقوق، واستطرد كايسر بقوله: «بينما استمر يهود وسط أوروبا يعانون من حكم اللوردات العدائي المستبد، كان يهود إسبانيا الإسـلامية أحرارًا؛ لقد عاشوا وسط تقاليدهم القديمة. تحت حكم الخلفاء، كانوا يصلون إلى أعلى المناصب

---

(١) المسيا أو الماشيح هو المنقذ الموعود بحسب الديانة اليهودية.

(٢) انظـر كتاب «حيـاة وزمن يهوذا هاليفي» لرودولف كايسـر (طبعة المكتبة الفلسفية، باللغة الإنجليزية)، ص ٤٧.

الحكومية. في ألمانيا كان اليهـود (عبيد التاج) للإمبراطور. اسـتخدمهم ملوك إنجلترا وفرنسـا لجلب الأموال المرتبطة بمصالحهم في كل أوروبا، أفنوا حياتهم في كد وتعب، وعاشوا في شـوارع الغيتو المظلمة والضيقة»[١]، وهنا يشير كايسر إلى المسـتوى العالي من الحريات السياسـية والاجتماعية التي حظـي بها يهود الأندلـس مقارنةً بالتضييـق الحاصل على يهود أوروبا الآخرين.

ووصف المـؤرخ الألمانـي اليهودي شـلومو دوف غواتين التغـير الإيجابي في حياة اليهود الذي رافق قدوم العرب إلى الأندلس بـ «المعجزة الإسـبانية»[٢]، ولم يختلف رأي ليندو عن رأي باقي المؤرخين اليهود، فقد أعطى إشـارات إيجابية لحكم المسـلمين للأندلس، بدأها بوصولهم وسـيطرتهم على

---

(١) انظـر كتاب «حيـاة وزمن يهودا هاليفي» لرودولف كايسـر (طبعة المكتبة الفلسفية، باللغة الإنجليزية)، ص ٤٨.

(٢) انظـر كتاب «مجتمع البحـر الأبيض المتوسـط: مجتمعات اليهود في العـالم كما صورتها وثائق جنيزة القاهرة»/الجزء الخامس لشـلومو دوف غواتـين (طبعة مركز الدراسـات الشـرقية في جامعة كاليفورنيـا، باللغة الإنجليزية)، ص ٤٢٥.

الأندلس، حيث قال: «كل الذين رغبوا بالخروج - من اليهود عند وصول المسلمين - نالوا الحرية لفعل ذلك، وبمطلق الأمان، ومع ممتلكاتهم، وأما الذين فضّلوا أن يبقوا، نالوا حرية ممارسة شعائرهم الدينية»[1]، واستطرد لاحقًا مؤكدًا على الحريات الدينية للجميع بقوله: «في قرطبة وإشبيلية، كانوا متسامحين وعادلين، حيث كان من الممكن في نفس الوقت أن يُرى اليهودي في معبده، والمسيحي في كنيسته، والمسلم في مسجده يصلون لخالقهم جميعًا»[2]، بل إن ليندو أشار أيضًا أن أمر الحرية والازدهار الذي عاشه يهود الأندلس لم يقتصر عليهم فقط، فقد بدأ يهود المجتمعات الأخرى بالقدوم إلى الأندلس من أجل «مشاركتهم - يهود الأندلس- في ازدهارهم وعلمهم».

---

(١) انظر كتاب «تاريخ يهود إسبانيا والبرتغال: منذ أزمانهم الأولى حتى طردهم الأخير من تلك الممالك وشتاتهم اللاحق (مع ترجمة كاملة لكل القوانين التي تخصهم خلال إقامتهم الطويلة في شبه الجزيرة الأيبيرية)» لإلياس ليندو (طبعة لونغمان، براون، غرين ولونغمانز، باللغة الإنجليزية)، ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠.

إن إطلاق ألفاظ مثل «المسـيا المنقذ»، و«المعجزة الإسبانية» علـى تبدل حال يهـود أيبيريا فور بدء حكم المسـلمين هي شهادة على عدل هذا الحكم، وتصبح هذه الشهادة أقل تحيزًا حين تجئ من المؤرخين اليهود أنفسـهم، وهم الذين اعتادوا - كمـا بيّنا - على البحث عن مأسـاة في تاريخ المجموعات اليهوديـة هنا أو هناك، ولكن المسـلمين لم يتركوا لهم هذه الفرصة، فقد عاش اليهود بحرية كاملة، ومارسوا شعائرهم الدينية وطقوسـهم اليومية، واعتنقوا المناصب العليا، فكان منهم قائد الجيش والوزير وغيرها من المناصب الحساسـة، بـل ووصلوا إلى رفاهيـة التطوير علـى الأدب والعلم، وهي درجة لم تعتد الأقليات في العالم على الوصول إليها.

والآن بعـد أن عرفنا تاريخ اليهـود في أيبيريا، ووضعهم الحضاري تحت الحكم الإسـلامي، نبدأ بدراسـة شعرهم، والحديـث عن العلاقات بين الشـعرين العربـي والعبري، ولكن ينبغي علينا قبل ذلك أن نجيب عن سـؤال ربما يجول في ذهن القارئ الآن، وهو: لماذا الشعر تحديدًا؟ إذا كان يهود

الأندلس قد تطوروا في الكثير من العلوم والفنون، فلماذا نتركها كلها ونخصص الحديث عن الشعر؟

لأن الشعر الذي يُعتبَر عند كل الأمم والشعوب فنًا، يعدّه العربي جزءًا من شخصيته ومن تاريخه، ولا يعامله معاملة المنقول الذي لا يخرج من مجالس العلم - كغيره من العلوم والفنون - والذي يتعلمه التلاميذ ولا يُحدِّثُون أحدًا به إلا عن طريق الكتب، أو في مجالس الخاصة، بل هو حاضر بخصوصيته في كل مكان من حياة العربي؛ في باديته ومدينته وريفه، وفي كل حالاته؛ جده وهزله، وخصامه واتفاقه، وفراغه وعمله، ويعرفه الصغير والكبير، والرجال والنساء، والأفراد بمختلف درجات نفوذهم وعلمهم، فإذا كان للعرب أن يكونوا في موقع المؤثِّر يومًا، فإنّ أول ما يصدرونه من ثقافتهم هو الشعر، ولا أعني بالشعر الاقتصارَ على نظمه فقط، بل حتى طقوسه، وشغف العامة والخاصة به، وتقريب ذوي النفوذ للشعراء، وذلك الأثر السحري الغامض الذي توقعه قصيدة في نفس سامعها، فلم تنظم أمة الشعر بالمقدار

الذي نظمته العرب، ولا زالت مقولة «غوستاف لوبون» تجول في ذهـنـي، إذ قال: «إنّ العرب وحدهم قرضوا من الشـعـر ما لم تقرضـه أممَ العالم مجتمعة»[1]، فلا عجب أن نترك كل ما سبق من العلوم والفنون ونتحدث عن الشعر بشكل خاص.

(١) انظر كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون (طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مترجم للغة العربية)، ص ٤٦٣.

الفصل الثالث
الشعر العبري

الشعر العبري المقدس

يبدأ التاريخ الأدبي للقصيدة العبرية منذ العهد القديم – التوراة والتلمود – حيث يتم تناول العديد من أجزائه أكاديميًا على أنها من الشعر، ومن الأمثلة على ذلك هذا الجزء من سفر الخروج ٦ : ٥١–٨؛ «[٦] يَمِينُكَ يَا رَبُّ مُعْتَزَّةٌ بِالْقُدْرَةِ. يَمِينُكَ يَا رَبُّ تُحَطِّمُ الْعَدُوَّ. [٧] وَبِكَثْرَةِ عَظَمَتِكَ تَهْدِمُ مُقَاوِمِيكَ. تُرْسِلُ سَخَطَكَ فَيَأْكُلُهُمْ كَالْقَشِّ، [٨] وَبِرِيحِ أَنْفِكَ تَرَاكَمَتِ الْمِيَاهُ. انْتَصَبَتِ الْمَجَارِيَ كَرَابِيَةٍ. تَجَمَّدَتِ اللُّجَجُ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ»، وسبب اعتبار الكثير من أجزاء العهد القديم شعرًا هو ما تحمله هذه الأجزاء من وقع جمالي، ولاحتوائها على إيقاع منتظم يجعل قابليتها للغناء عالية، وقد فتح هذا التناول البابَ أمام الأكاديميين والباحثين لتفكيك هذا الإيقاع، وإيجاد

نمـوذج عالي الصدق والثبات يقدم تفسـيرًا عروضيًا له، ولكن مـا زالت الأكاديميا تقف عاجزة إلى الآن عن هذه المهمة، إذ لا يوجد فهم دقيق لصنعة الشـعر العبري المقدس، لعدة أسباب، أهمها؛ غيـاب العلوم اللغوية الكاملة بالعبرية القديمة، على الرغم من المحاولات الكثيرة لأية إضافة علمية بهذا الصدد.

ومـن هذه المحاولات دراسـة «روبرت ديـك» التي بدأها بالتقديـم للشـعرَ العبري في التوراة، وذلك في كتابه «الشـعر العبري: محاضرات بعـد ظهر يوم الأحد، قبل كلية الحقوق في غرينسـبورو»، وأوضـح عـدم إمكانية تطبيـق أحد أنظمة العـروض الكمية أو النوعية المعروفـة في العالم عليه، إلا أنه أورد بعـض الخصائص التي يتميز بها هذا الشـعر بعيدًا عن الوزن، فبالإضافة لكونه شعرًا دينيًا قصصيًا، فإن أبرز خاصية تميزه هي «التماثل»، بمعنى الاعتماد على التشـابه، سواءً في التركيب أو تكرار العبارات أو الجمل بأكملها أحيانًا، ويورد ديك المثال التالي من سفر مزامير على تماثل التركيب[1]:

---

(١) انظر كتاب «الشـعر العبري: محاضرات بعد ظهر يوم الأحد، قبل كليـة الحقوق في غرينسـبورو» لروبرت ديك(طبعـة مكتبة س.ف توماس، باللغة الإنجليزية).

«السماء هي عرشي
والأرض هي موطئ قدمي»

وقام «هيردر» بدراسة أخرى وصل فيها للنتيجة السابقة نفسها التي وصل إليها ديك، والتي تؤكد علاقة الشعر العبري في العهد القديم بالموسيقى، وقدم دراسته في كتابه «روح الشعر العبري»، حيث أوضح أن الشعر العبري المقدس مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالموسيقى، ولكن موسيقاه إيقاعات عشوائية غير منظمة، ربما ترتبط بنبضات القلب الخاصة بقائلها، مما يصعب مهمة إيجاد نظام وزن واحد قام عليه الشعر العبري المقدس، لذلك اعتبره هيردر «جامع مانع»، بمعنى أنه غير منتظم في وزنه حيث يحتمل كل الاحتمالات ولكنه صعب النظم، كما أكد هيردر على كون التماثل خاصية مهمة من خصائص الشعر العبري المقدس، وعد «الرمزية» و «المجاز» من خصائصه الظاهرة أيضًا، وقد أوضح هيردر أن هذا الشعر روحاني ذو قيم سامية، شأنه في ذلك -من وجهة نظر هيردر- شأن الشعر الشرقي عامةً؛ مثل العربي والإيراني[1].

---

(١) انظر كتاب روح الشعر العبري/ الجزء الثاني لهيردر (طبعة طبعة إدوارد سميث، وقد قام جيمس مارس بترجمته إلى الإنجليزية عن الألمانية).

ومن المحاولات المهمة في فهم وزن الشعر العبري المقدس تلك التي قام بها «إلكانون إســاكس»، ونشر دراسته المتعلقة بها في «المجلــة الأمريكية للغات والآداب الســامية»، وقد قدم إســاكس في بداية الدراســة لغموض وزن الشعر العبري المقدس،ولارتباطــه بالغناء، لــا يُبنى عليه مــن إيقاعات، كمــا تحدث عن وجود محــاولات للتلاعب من قبل الباحثين بغيــة الوصــول إلى نماذج أكثــر ثباتًا لوزن الشــعر العبري المقدس،واعتبر إســاكس هذه المحاولات غير مدعومة بأدلة كافية، ثم سعى للكشف عن هذا الوزن بشكل أكثر حيادية، ومــن أجل ذلك حاول إيجــاد أثر للوزن السنســكريتي على الشــعر العبري المقدس، وخصوصًا مقيــاس – المقياس لفظة تقابــل البحر الشــعري في الأكاديميا العربيــة – آريا، وهو مقياس كمــي[1] يتكون من جمل شــعرية تحتــوي الواحدة

(١) تُقسَم المقاييس الشعرية في العالم إلى كمية ونوعية، والمقاييس الكمية هــي التي تعتمد على خصائص معينة للمقطع الصوتي، وأبرزها طوله، بينما تعتمــد المقاييــس النوعية علــى عدد المقاطــع الصوتية، بــدون الالتفات إلى خصائصها.

منها على أربعة مقاطع صوتية ثقيلة، وغالبًا ما تأتي المقاطع بالترتيب التالي: (مقطع خفيف، مقطع ثقيل، مقطع ثقيل (أو مقطعين خفيفان)، مقطع خفيف)، ومقياس آريا كثير الاستخدام في الأعمال الفلسفية في مرحلة ما بعد الفيدا[1]، وَخَلُصَ إساكس إلى التأكيد على وجود انتظام عالٍ في إيقاع الشعر العبري المقدس، واستنتج وجودَ إشارات على تأثر الوزن العبري المقدس بالوزن السنسكريتي الكمي، بالإضافة إلى وجود خصائص نوعية قائمة على النبر، فقدم افتراضه بأن وزن الشعر العبري المقدس هو خليط من المقاييس الكمية والنوعية، ولكنه لم ينجح بتحديد ترتيب واضح للمقاطع العبرية على الرغم من هذا الافتراض، وبناءً على افتراضه للنموذج المزدوج، فقد انتقد إساكس محاولات لباحثين سابقين تتحدث عن نمط نبري [2]فقط للوزن العبري المقدس،

---

(١) كتاب ترانيم وتراتيل مقدس عند الهندوس، مكتوب بالسنسكريتية، كتِبَ على مدار أكثر من ألف عام.

(٢) الشعر الموزون بنظام النبرات هو الشعر الذي تحتوي جمله الشعرية على ثابت من المقاطع المنبورة، وهو أحد أنظمة الشعر النوعي.

وتتجاهـل خصائـص الـوزن الكمـي فيه، مثـل محاولات «سايفرس»و «كوينغ» و «روثشتاين» وغيرهم[1].

وبعد البحث ومراجعة معظم الدراسات والكتب السابقة، استنتجنا أن الشعر العبري في العهد القديم:

- فيه إيقاعات منتظمة تجعله سهل الترنيم.
- غير موزون علـى أنظمة الوزن المعروفة عالميًا، على الرغم مـن وجود حالات تتشـابه مع بعض المقاييـس الكمية أو النوعية، إلا أنها حالات لا يمكن تعميمها.
- التماثل بأنواعه المختلفة خاصية رئيسية فيه، فمن الممكن أن يكرر عبارات أو جُمَل أو كلمات أو تراكيب.
- المجاز والرمزية من خصائصه في بعض الأحيان.
- ذو مواضيـع دينيـة، بمختلـف أشـكالها القصصيـة أو التعليمية أو الرثائية.

---

(١) انظر ورقة بحثية بعنوان «الأساس الوزني للشعر العبري» لإلكانون إسـاكس (منشـورة في المجلة الأمريكيـة للغات والآداب السـامية، باللغة الإنجليزية).

الشعر العبري القديم

وبعد انتهاء مملكتي يهوذا وإسرائيل في ٥٨٦ قبل الميلاد و٧٢٠ قبل الميلاد على التوالي، حكمت شعوبٌ أخرى اليهودَ كما أسلفنا، ولم تقم لهم دولة، ولم يستقلوا بثقافة، مما أضعف وجود اللغة العبرية شيئًا فشيئًا، وساهم في استبدالها بالآرامية بين اليهود في فلسطين، لذلك لا نكاد نجد شعراء ينظمون الشعر بالعبرية في الفترة الممتدة من العهد القديم حتى القرن العاشر الميلادي إلا القليل، وقد أوضح «كارمي» في «كتاب بينغوين للشعر العربي» أن الفترة بين الشعر العبري المقدس وبين القرن العاشر شهدت ظهور الشعر العبري الديني الذي يسمَّى «بِيّوت» في فلسطين، في نهايات حكم الإمبراطورية الرومانية وقبل وصول المسلمين، ويعدد كارمي عدة شعراءللبيوت، منهم «جوزيه بن جوزيه» في القرن السادس الميلادي، وكلًا من «ياناي»، و «إليعازر بين كالير»، و «فينيها سهاكوهين» في القرن الثامن الميلادي،

ويؤكد كارمي أن كل الشعر العبري حتى القرن العاشر هو شعر ديني مرتبط بالطقوس اليهودية[1].

إعادة إحياء اللغة العبرية

بدأت محاولات إحياء اللغة العبرية على يد يهود عاشوا في مناطق تابعة لنفوذ الدولة الإسلامية بدءًا من القرن العاشر الميلادي، وقد ذكر إلياهو أشتور أن فكرة خدمة المسلمين للغتهم العربية باعتبارها لغة مقدسة أثرت على علاقة اليهود الخاضعين للحكم الإسلامي بلغتهم العبرية[2]، وقد بدأت تلك المحاولات بالإسهامات اللغوية للغاون سعديا الفيومي في بغداد، الذي يُعتبَر نقطة تحول في تاريخ اللغة والأدب العبريين، وبالإضافة إلى إسهاماته الفلسفية والدينية، وقد كان عمله اللغوي الأبرز والأكثر إسهامًا في

---

(١) انظر كتاب بينغوين للشعر العبري لكارمي (طبعة مطبعة فايكنج، باللغة الإنجليزية).

(٢) انظر كتاب «يهود إسبانيا المسلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٣٨٣.

إحياء اللغة العبرية هو تأليفه لأول قاموس في اللغة العبرية «إغرون»، والذي يحتوي على مقالات عن الشعراء العبريين، وعلى ترتيب للكلمات المقفاة، مما يساعد الشعراء على تقفية قصائدهم، وخصوصًا بعد أن أصبحت ركنًا من أركان الشعر العبري في القرن الثامن الميلادي بجهود الشاعر ياناي، وقد كتب سعديا مقدمة كتابه في طبعته الثانية باللغة العربية، وعرَّف فيها الشعر العبري، وأوضح خصائصه، وقد قال فيها إنه أنجزه بإسهامات كاتب عربي، ليس معروفًا على وجه التحديد من هو هذا الكاتب،ومن جهود سعديا الأدبية أيضًا تأليفه لكتاب في قواعد العبرية اسمه «كتب اللغة»[1].

وهذه الأعمال اللغوية التي قام بها سعديا الفيومي كانت مقدمة لثورة أدبية عبرية شملت الفنون بمختلف أشكالها؛ ومنها الشعر، وعلى الرغم من بَدْءِها في بغداد إلا أنها ازدهرت ونضجت في الأندلس، وذلك نتيجةً لأسباب التحضر الخاصة بالمجتمع اليهودي في الأندلس والتي

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء السابع عشر لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٦١٢.

ذكرناها سابقًا؛ من إدارة سياسية واكتفاء اقتصادي، فكان من الطبيعي أن تكون الأندلس هي المركز الأدبي اليهودي في العالم، والوجهة الأدبية التي يقصدها اليهود - وغيرهم - فكان يأتي إليها الباحثون عن وضع علمي أو اقتصادي أفضل، لذلك أكمل أدباء الأندلس ما بدأه الغاون سعديا في بغداد، ومن أجل هذا فقد وصف كارمي سعديا بأنه «حلقة الوصل بين الشرق والمدرسة الإسبانية»، وقال كارمي: «للعديد من الأسباب المهمة، فإن سعديا هو المهيئ الجذري لابتكار مدرسة الشعر الأندلسية - مدرسة الشعر العبري الأكثر شهرة في العصور الوسطى- وهو من أوائل من كتبوا شعر عبري غير ديني»[1].

وفي الأندلس، وتحديدًا في قرطبة، برز «مناحم بن يعقوب ابن سروق»، والذي تقدمه الموسوعة اليهودية على أنه مؤلف ومعجمي إسباني عاش في القرن العاشر الميلادي، وولد في

---

(١) انظر كتاب بينغوين للشعر العبري لكارمي (طبعة مطبعة فايكنج، باللغة الإنجليزية)، ص ٢١.

«طرطوشــة»، وما لبــث أن رحل مبكــرًا إلى قرطبة، عاصمة الدولة الأندلســية، ويعتبَر الإنجاز اللغوي الأبرز لمناحم – بالإضافة لكونه شــاعرًا – هو تأليفــه للمعجم وكتاب النحو «محبريت»[1]، وقد اعتمد مناحم في معجمه على افتراض وجود جذور أحادية وثنائيــة للكلمات العبرية، وكان «محبريت» أول معجــم يحتوي ألفاظ الكتاب اليهــودي المقدس، كما أنه أول عمل نحوي باللغة العبريــة[2]، حيث كان المعجم الذي قدمه الغاون ســعديا مكتوبًا بالعبرية بحروف عربية، وقد أكمل تلميذ مناحم الأشــهر «يهوذا حيوج» مســيرة أستاذه، وإن كان قد خالفه بإثباته الجذور الثلاثية للكلمات العبرية بدلًا مــن الأحادية والثنائية، وقد أصبحــت مؤلفات حيوج لاحقًا مصادرًا في النحو العبري[3].

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الرابع عشر لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٢٢.

(٢) انظر كتاب «يهود إســبانيا المســلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشــتور (طبعــة منظمة النشــر اليهوديــة، ترجمــه إلى الإنجليزيــة آرون وجيني كلاين)، ص ٢٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٨.

الشعر العبري في الأندلس
الأدب والسلطة (مناحم ودوناش، وحسداي)

عمل مناحم بن ســروق سكرتيرًا لدى «إسحق بن عزرا بن شــبروط» في قرطبة، وكان إســحق حاخامًا ووجيهًا يهوديًا، وأحــد أغنــى أغنياء الأندلس، وبعد موت إســحق، اســتمر مناحــم بالعمل لدى ابنه «حِســداي»، وهو طبيب وأحد كبار شخصيات المجتمع الأندلســي، وقد عمل حِسداي في الطب، وفي البحث العلمي المتعلق بمجالاته، ومن أبرز أعماله اشتغالُه مــع فريق على ترجمــة عمل صيدلي مهم للطبيــب اليوناني «ديســقوريدوس» مــن الإغريقية إلى العربيــة، وهو ما قربه لاحقًا من الســلطة، حيث عينه الأمير «عبد الرحمن الثالث» مديــر إدارة الجمارك، وهو منصب مهــم جدًا في الدولة،كما شــارك حســداي في بعض البعثات الدبلوماسية الخارجية، ومــن مهامــه الناجحة والبــارزة عملُه على إقناع «ســانكو» ملك «ليــون» بالذهاب إلى قرطبة، وتوقيع معاهدة ســلام مع

الأمير عبد الرحمن الثالث[١]، وذكر أشتور أن حسداي كان وزيرًا في بلاط الأمير[٢]،ولم يكن عبد الرحمن الثالث أميرًا كسائر الأمراء، بل كان قد بلغ من القوة أن أعلن نفسه خليفة للمسلمين، مستغلًا قوته وضعف العباسيين في بغداد، وصار يُسمَّى الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله[٣]، وبالإضافة إلى منصب حسداي في الدولة، فقد كان له منصب ديني، إذ كان رئيسًا للمجتمع اليهودي في الأندلس[٤].

لم تكن طموحات حسداي داخلية فقط، ولم تقتصر أمانيه على قيادة يهود الأندلس، بل كان يعمل على قيادة يهود العالم، ولكن ليس بالطريقة التقليدية المقتضية أن يصبح

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء التاسع لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ١٤٥.

(٢) انظر كتاب «يهود إسبانيا المسلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٢٤٧.

(٣) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي/ الجزء الثاني (طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، ص ٤٨.

(٤) انظر كتاب «يهود إسبانيا المسلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٢٤٧.

رئيسًا لليشيفا في بابل، بل كان يسعى إلى رفع وصاية اليشيفا البابلية عن يهود الأندلس، وإنشاء يشيفا جديدة في الأندلس،وهذا الطموح كان متوافقًا تمامًا مع فكر الخليفة عبد الرحمن الثالث، لأن بابل تتبع الخلافة العباسية، وسطوة يشيفا بابل على يهود الأندلس يعطي نفوذًا عباسيًا ما داخل الإمارة الأندلسية الأموية، ومن أجل هذا الهدف المشترك عمل حسداي على جعل الأندلس المركز الديني اليهودي بدلًا من بابل،وقد كان الوضع الحضاري للأندلس عامةً وللمجتمع اليهودي هناك -كما بيّنّا سابقًا-يسمح بتنفيذ هذه الفكرة، والتي من أجلها قام حسداي بعدة إجراءات منها استقطاب العلماء والأدباء والباحثين والحاخامات نحو قرطبة، والإغداق عليهم، فأكرم حسداي مناحمَ بن سروق، وشجعه على عمل معجمه محبريت، وجلب الحاخام «موسى بن هانوخ» من إيطاليا، لرئاسة حاخامية قرطبة، وكان الشاعر «دوناش بن لبراط» أحد الذين جلبهم حسداي إلى قرطبة.

ودوناش بن لبراط هو شاعر ولغوي ومفسر، ويُعتَقَد أنه «أدونيم هاليفي»نفسه، وقد كان دوناش تلميذ الغاون سعديا

الفيومي، فدرس النحو علـى يديه، ثم ذهب إلى «فاس»بعد مـوت سـعديا،وغادرها لاحقًا نحو قرطبـة[1]، التي كانت جاذبة للنخبة كما ذكرنا، وقد كان الشاعران مناحم ودوناش يمدحان حسـداي في شـعرهما، وهو الطقـس العربي الذي بدأ يتسـرب شيئًا فشـيئًا إلى وجهاء اليهود، الذين أصبحوا يحيطون أنفسهم بالشعراء ليمدحوهم، وينقلون مناقبهم إلى الناس.

ويبدو أن علاقة مناحم بدوناش لم تكن جيدة، وربما لعب التنافس على القرب من حسداي دورًا فيها، إذ انتقد دوناش معجمَ مناحم سـرعان ما وقعت عينه عليه،وألف كتاب شعر اسمه «الردود» من أجل هـذا الغرض، وبرر دوناش انتقاده بأن محبريت يقـدم تعريفات مغلوطة تجعـل القارئ يفهم الشـريعة اليهودية – أو الهالاخاه – بشـكل خاطئ، إلا أن

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء السادس لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٤٦. وكتاب «يهود إسبانيا المسلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٢٥٠.

مناحم لم يرد على دوناش، ولكن مجموعة من تلاميذه قامت بالرد، ومنهم «يهوذا بن داود» - والذي يُعتَقَد أنه نفسه يهوذا حيوج - «وإسحق بن جقطلة»، و «إسحق بن قبرون»، فرد «يهودي بن شيشت» ومجموعة من تلاميذ دوناش على تلاميذ مناحم، لتبدأ معركة أدبية انقسم فيها المجتمع الأدبي اليهودي في الأندلس بين مناحم ودوناش[1].

وفي أحد الأيام كانت الحادثة التي رجّحت النفوذ الأدبي لدوناش على مناحم، وهي أن حسداي غضب على مناحم بسبب آرائه القرائية، وانتقاده التلمودَ والحاخاميين، فطرده وأهانه، ثم صفح عنه بعد حين، ولكن مناحم عاد إلى طرح آرائه نفسها، فأمر حسداي بتكبيله بالحديد وسحله وسجنه، فخلت الساحة من أي منافسين مؤثرين لدوناش؛ ربما لم تكن آراء مناحم القرائية سببًا حقيقيًا

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء السادس لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٤٦. وكتاب «يهود إسبانيا المسلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٢٦٠.

لغضب حسداي منه، ومن الممكن أن يكون حسداي قد استخدم تلك الآراء حُجةً لإبعاد مناحم عن الساحة الأدبية، لقد كان حسداي يحمل مشروعًا سياسيًا، استخدم لأجله العلم والأدب، ولم يكن مناحم الرجل المناسب لتنفيذ هذا المشروع، بسبب أفكاره الأصولية، فلم يتردد حسداي باستعمال غيره فور العثور عليه، وقد كان هذا البديل هو دوناش، الذي بدت ملامح مشروعه الأدبي أكثر اندماجًا مع الثقافة العربية المحيطة، ومن هنا بدأ حسداي تنفيذ مشروعه بدون قوى حقيقية تمنعه أو تبطئ من سيره.

صنعة الشعر العبري

إن أهم عمل قام به دوناش هو خلق نموذج عروضي للشعر العبري، ليصبح موزونًا على نظام التفعيلة العربي[1]، فقد بدأ دوناش ينظم الشعر العبري بالاعتماد على العلاقة بين

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء السادس لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٤٦. وكتاب «يهود إسبانيا المسلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٢٥٣.

سـواكن الحـروف ومتحركاتها، مما أعطـى هوية عروضية للشـعر العبري، بعد أن كان معتمـدًا في نظمه على العناصر الجمالية فقط،وعلى التماثل والمجاز، بشكل نسبي لا يمكن قياسـه، وقد تعرض دوناش للانتقـاد من بعض الأدباء على عمله هذا، وكان تلاميذ مناحم - مثل إسحق بن قبرون- من أشـد منتقديه، وكان من الطبيعي أن يقابَل مشـروع دوناش بالرفض من بعـض الأدباء، وذلك لعدة أسـباب، وهي: أن أي تغيـير - أدبـي أو غـيره - يُقاوَم بالرفـض لاعتبارات ثقافيـة مجتمعيـة أو نفعيـة شـخصية، وأن دوناش يمثل مدرسـة جديدة مـن الاندماج، وهذه المدرسـة على عداء مع طلاب مناحم، ومن سار على فكرهم الأصولي، وكانت سلطة حسداي - التي استخدمت مدرسة دوناش الجديدة - كفيلة بترجيح كفة دوناش، ليُحسَـم الأمربتأسيس مرحلة جديدة من الشعر العبري، قائمة على نظام التفعيلة العربي.

بنية وموضوعات القصيدة العبرية

انتهـى دوناش من أمر الوزن بنجاح،ثم بدأ في صنع بنية للقصيـدة العبرية، وتناوُل موضوعات جديـدة فيها، وذكر

أشــتور أن دوناش نقــل بنية القصيدة العربيــة إلى القصيدة العبريــة، فاســتخدم المقدمة، واهتــم بالانتقــال والوحدة والصــورة البلاغيــة والمحتــوى، كما اســتخدم الموضوعات الشــعرية العربية في قصائده، مثل: الحكمة، والخمريات، حتى إنه تخيل صديقًا ينادمه[1]، وكذلك فقد ذكرت الموسوعة اليهوديــة تعددَ موضوعات الشــعر عند دوناش، لتشــمل: الحكمــة، والمــدح، والصداقة، والحب، ووصــف الطبيعة، ومُتَــع الحيــاة، ووصف الخمــر، ونظم الشــعر التعليمي، والشــعر الديني والطقســي[2]؛ أورد «بيتر كــول» في كتابه «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م» عــدة قصائد لدوناش، نذكر منها هذا المقطع على سبيل المثال[3]:

---

(١) انظر كتاب «يهود إسـبانيا المسـلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٢٥٥.

(٢) انظر الموسـوعة اليهودية/ الجزء السـادس لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٤٦.

(٣) انظــر كتاب «حلم القصيدة: الشــعر العبري من إســبانيا المســلمة والمســيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيــتر كول (طبعة مطابع جامعة برينســيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ٢٤.

إلى صوتِ المياهِ المتدفقة،
مداعبَةُ أوتارِ القانون
ترافقُ المطربين
معالم زمارِ والعود.

وقد استخدم دوناش في هذا المثال صورةً شرقيةِ الملامح، ذكر فيها آلات القانون والعود والمزمار.

من دوناش بن لبراط إلى يهوذا هاليفي

كانت زوجة دوناش هي أول المتأثرين بالثورة الأندلسية للشعر العبري، وزوجة دوناش مجهولة الاسم، ولم يصلنا من أعمالها إلا قصيدة واحدة، وربما لم تكتب غيرها، وغرض القصيدة شرحُ حبها لدوناش ومعاناتها بفراقه، حيث كان دوناش قد غادر الأندلس مضطرًا عام ٩٨٥م لأسباب غير معلومة، والجدير بالذكر أن زوجة دوناش هي الشاعرة العبرية الوحيدة المعلومة في العصور الوسطى، وقد أورد كول قصيدتها، ومن اللافت للنظر أنها استحضرت في مطلعها

صورة الظبي أو الغزال، إذ قالت[1]:

هل حبُها سيتذكرُ ظبيَته حَسَنةَ الشَّمائِل

ومن شعراء الأندلس العبريين الشاعر «إسحق بن مارشاءول»، الذي تناول في شعره موضوعات عديدة، مثل؛ سر الحب والافتتان والصحبة ورونق الشباب، وهي كلها موضوعات جديدة على الشعر العبري، وقد ذكر أشتور أن تلك الموضوعات هي نتيجة لتأثُر ابن مارشاءول بالموضوعات العربية[2]، يقول ابن مارشاءول في مطلع قصيدته «ظبي سعى في إسبانيا»[3]:

---

(١) انظر كتاب «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسيتون، باللغة الإنجليزية)، ص. ٢٧

(٢) انظر كتاب «يهود إسبانيا المسلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشتور (طبعة منظمة النشر اليهودية، ترجمه إلى الإنجليزية آرون وجيني كلاين)، ص ٣٩٥.

(٣) انظر كتاب «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ٢٨.

ظبيٌ سعى في إسبانيا
يصنعُ العجائبَ برغبةٍ
ومن خلالها يسيطرُ على
كلِّ المخلوقاتِ من الذُّكورِ والإناثِ

ونلاحظ استخدام ابن مارشـاءول في المقطع السابق صورةَ الغزال، وهي صورة مألوفة في الشـعر العربي، كما استخدم ابن مارشاءول الضمائر المذكَرة في خطابه، وربما قصد الغزل بفتى، أو خطاب الأنثى بصيغـة الذكر، على طريقة العرب أيضًا، واسـتمر ابن مارشـاءول بتأثره بالصـور العربية في القصيـدة، حيث أكمل غزله بتشـبيه المحبـوب/ة بالقمر، واستبكى الطيور، فقال:

إذن فابك معي، أَيَّتُهَا الطيورَ؛
كلَّ حدأةٍ وصقر

ومن شعراء القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين الشاعر «إسحق بن خلفون»، الذي قدِمَ من شمال أفريقيا إلى الأندلس مـع والديه، وقد ابتدع ابن خلفـون بدعة جديدة لم يعرفها الشـعر العبري في تاريخـه، وهي امتهان الشـعر، بمعنى

أنه كان يصنع القصيدة للتكسب منها، وقد أكدت الموسوعة اليهودية على ذلك، وأشارت - نقلًا عن كتاب «المحاضرة والمذاكرة» لموشيه بن عزرا- أن ابن خلفون هو الشاعر العبري الوحيد الذي امتهن الشعر «على طريقة الشعراء العرب الطوافين»[(١)]، كما ذكر محمد بحر أنها الحالة الأولى في تاريخ الأدب العبري التي يظهر فيها أدب الكدية[(٢)]، ويبدو أن ابن خلفون قد استغل تغيُّر مفهوم الشعر عند ذوي النفوذ من اليهود، حيث أصبح وجهاءهم يحيطون أنفسهم بالشعراء على طريقة أصحاب السلطة من العرب، مما فتح بابًا لم يكن موجودًا من قبل لتكسب الشعراء العبريين؛ وبالإضافة إلى مدح الوجهاء، فقد تعددت موضوعات قصائد ابن خلفون، لتشمل المدح، والرثاء، والهجاء، والوداع، والصداقة[(٣)]، والغزل، وقد ذكر أشتور أن شعر الغزل لدى ابن خلفون منظوم على

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء التاسع لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٦٨٥.

(٢) انظر كتاب «اليهود في الأندلس» لمحمد بحر عبد المجيد (طبعة الهيئة العامة للتأليف والنشر)، ص ٣٧.

(٣) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء التاسع لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٦٨٥.

طريقة الشـعراء العرب[1]، وقال كول: إن ابن خلفون «وسَّع نطاق الشـعر العبري الأندلسـي الجديد ليشمل كلَّ العناصر العربية، وكلًا من رشـاقة البنية وخفة الأسلوب»[2]، وعند تقـدم العمرابن خلفون عمل لدى أهم رجل يهودي في تاريخ الأندلس قاطبةً؛ «شامويل هاليفي».

وشـامويل هاليفـي - أو كمـا تسـميه المصـادر العربية «إسماعيل بن النغريلـة»- ولد في قرطبة، وهاجر منها طفلًا مـع جموع كبيرة من اليهود والمسـلمين إثر ثـورة الأمازيغ عـام ١٠١٣م، وانتقـل بين المدن حتى اسـتقر بـه الحال في غرناطة، والتي كانت وقتها مسـتقلة عـن الحكم الأموي في قرطبة، ويحكمها «الزيريون» - وهم أسـرة صنهاجية - في فـترة تاريخية تُعـرَف بـ «الطوائف»، انقسـمت فيها مدن

---

(١) انظر كتاب «يهود إسـبانيا المسـلمة»/ الجزء الأول لإلياهو أشـتور (طبعـة منظمة النشـر اليهوديـة، ترجمـه إلى الإنجليزيـة آرون وجيني كلاين)، ص ٣٩٨.

(٢) انظـر كتاب «حلم القصيدة: الشـعر العبري من إسـبانيا المسـلمة والمسـيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيـتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسـيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ٣٥.

الأندلس، واستقلت بذاتها؛ وقد بدأ شاموبل بالتدرج في المناصب في غرناطة، حتى وصل رئاسة الوزراء فيها، وقد ساعد شامويل «باديسَ»ضد أخيه «بولوغين» في الوصول إلى حكم غرناطة بعد وفاة أبيهما عام ١٠٣٨م، فاستعمله باديس ليصبح شامويل قائد الجيش في غرناطة، بالإضافة إلى منصبه السابق كرئيس وزراءها،كما كان شامويل زعيما لجالية اليهودية في الأندلس، بالإضافة إلى كونه شاعرا، وباحثا في القانون الديني، ومفسرا للتوراة، ونحويا، وهو ما دعا الموسوعة اليهودية لوصفه بأنه اليهودي صاحب الإنجاز الأعلى على الإطلاق في العصر الإسلامي في إسبانيا[١]، وقد بقي شامويل في مناصبه حتى وفاته عام ١٠٥٦م.

وكتب شاموي لما يزيد على ألفي قصيدة، تعددت موضوعاتها، وكان منها أشهر المراثي في تاريخ الشعر العبري، والتي كتبها في شقيقه، كما شملت موضوعاته الحكمة، ووصف الطبيعة، والخمريات، والإخوانيات،

---

(١) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء السابع عشر لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٧٧٦.

ونظم الشعر بالعربية أيضًا، وكانت قصائده رائجة ومشهورة، وهو ما أشار إليه «موشيه بن عزرا» - شاعر وفيلسوف ومؤرخ - بحديثه عن الانتشار الكبير في قصائد شامويل في الأندلس وسوريا ومصر وبابل وشمال أفريقيا[1]، وقد ساعد منصب شامويل العسكري في تقديمه موضوعًا جديدًا آخرَ في الشعر العبري، وهو شعر الحماسة ووصف المعارك والحروب، وكان هذا نتيجة الحروب التي خاضها، حيث تميزت فترة الطوائف بكثرة الحروب والصراعات الدموية بين ملوك الطوائف الأندلسية فيما بينهم، أو مع الممالك المسيحية المجاورة، وأورد محمد بحر بعضًا من شعره، ومنه قوله[2]:

والخيلُ تجري رواحًا وغدوًّا
كأفاعٍ أُطلِقت من جحورِ

---

(١) انظر كتاب «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ٣٧.

(٢) انظر كتاب «اليهود في الأندلس» لمحمد بحر عبد المجيد (طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر)، ص ٤٧.

والرماحُ التي ترمي

كالبرقِ يملأ بريقُها الفضاءَ

والسِّهامُ كأنَّها مطرٌ يَنهمر

وظهورُ الخيلِ أضحتْ كالغربال

وقد لعب شاموليل دورَ السلطة بجدارة في ثنائية السلطة والشعر، وهو الدور نفسه الذي لعبه حسداي بن شبروط قبله، فكان شامويل الوجيه الجديد الذي اهتم بتطوير الشعر، قال إبراهيم بن داود - مؤرخ وفيلسوف يهودي عاش في القرن الثاني عشر: «بدأ الشعراء يزقزقون في عهد الوجيه حسداي، ثم راحوا يغردون بصوت عالٍ في عهد شامويل» [1]، وقد رعى شامويل شعراء مهمين في تاريخ الأدب العبري؛ مثل: إسحق بن خلفون، و «يوسف بن حسداي»، وشلومو بن جابيرول، وصَنَع من غرناطة مركزًا جديدًا للنهضة الشعرية والأدبية العبرية، بعد تفرق الجمع

(١) انظر كتاب «تاريخ اليهود من الإمبراطورية الرومانية إلى فترة بداية العصور الوسطى» / الجزء الثاني لسيمون دوبونوف (طبعة توماس يوسيلوف المتحدة، باللغة الإنجليزية)، ص ٦٣٧.

العربي عن قرطبة، وهو ما استمر حتى بعد موته، إذ ظهر فيها لاحقًا موشيه بن عزرا، ويهوذا هاليفي، بل ربما كان بُعدُ بعض الشعراء عن غرناطة سببًا في ضعف تأثيرهم في الشعر العبري، ومنهم - ممن ذكرهم كول - «إسحق بن غياط»، رئيس أكاديمية «اليسانة»، و«يوسف بن تزاديك»، وهو شاعر وحاخام وفيلسوف وقاضٍ، وابن لعائلة من الطبقة البرجوازية، وما يميزه بشكل خاص هو براعته في نظم الموشحات، التي انتقلت أيضًا في جملة ما انتقل من الأدب العربي إلى الأدب العبري؛ و «ليفي بن التبّعان» في سرقسطة، و «باهيا بن باكودا»، الشاعر والقاضي الذي عاش في سرقسطة أو قرطبة[1].

ويوسف بن حسداي هو الشاعر صاحب القصيدة اليتيمة، والتي نظمها من خمسة وتسعين بيتًا بغرض طلب المساعدة من شامويل هاليفي في إيجاد مأوى لأخوين قدما من

---

(١) انظر كتاب «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسيتون، باللغة الإنجليزية).

مدينة «مدمَرة»، وقد بدأها يوسف بمقدمة، ثم مدْح للناغيد شاموِيل، ودعاء لابنه يوسف، ثم تطرق إلى غرضه،وقد أشاد موشيه بن عزرا بالقصيدة كثيرًا، وقد قال يوسف في مطلعها[1]:

هل ذلكَ الظبيُ شجاعٌ جدًا ليلفَّ
نفسَه في حجابٍ من الليلِ مثلَ الرّداء،
ليرعى النجومَ بحلولِ الليلِ، ويتجولُ
خلالَ حطام الصحراءِ في رعبٍ وقلق؟
هل يتركُ صَوتَ العودِ ويذهبُ للجزع؟
للتجوالِ والخطرِ يغادرُ حجرَته
حتى يعلقَ في شبكةٍ من الأحلام
ويدخلَ بسرعةٍ في فخ النوم.

أما شلومو - سليمان - بن جابيرول فهو من شعراء القرن الحادي عشر البارزين،واعتبره دوبونوف شاعرَ

---

(١) انظر كتاب «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ٧١.

فترته الأول، ووصفه بـ «فارس الأسلوب وسيد الشعر»[1]، وعدّه كولثانيَ أهم شاعر عبري في العصور الوسطى بعد يهوذا هاليفي[2]، نشأ شلومو في سرقسطة، وأتقن الشعر في سن صغير، ثم غادر إلى غرناطة بعد موت سيده، حيث استقر به الحال عند الناغيد شامويل هاليفي، وبقي هناك يمدحه ويكتب في موضوعات فلسفية ودينية أخرى، وقد كان شلومو يعاني من مرض عضال - ليس معروفًا بالتحديد ما هو- خلق لديه حالة من العزلة والتشاؤم، وربما أثر في نظرته لنفسه وسلوكه، فقد وصف نفسه في شعره بالقصير والضعيف والقبيح، كما جعله المرض عصبيًا وحاد المزاج، مما كان يؤدي به في الكثير من الأحيان لبعض النزاعات مع رجال بارزين، أو مع المجتمع عمومًا، ومنها نزاعه لاحقًا

(١) انظر كتاب «تاريخ اليهود من الإمبراطورية الرومانية إلى فترة بداية العصور الوسطى»/ الجزء الثاني لسيمون دوبونوف (طبعة توماس يوسيلوف المتحدة، باللغة الإنجليزية)، ص ٦٣٩.

(٢) انظر كتاب «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ٧٥.

مع شــامويل هاليفي؛ وكتب شلومو في الكثير من الموضوعات الشعرية، ومنها المدح؛ حيث مدح شامويل وغيره، والرثاء؛ حيث كتب في رثاء أبيه وأمه، وسيده السابق «جاكوثيال بن إســحاق» بعد مقتله، كما كتب شــعرًا دينيًا وطقسيًا، ومنها قصيدتــه «تاج الملكة»، والتي تعتــبَر واحدة من أعظم وأهم قصائــد الشــعر العبري على الإطــلاق، وكتب شــلومو أيضًا في الحــب، والعزلة، والنزعة التشــائمية، والســخرية من المجتمع.

وقد كان شــلومو نحويًا وفيلســوفًا مهمًا، بل يُعتبَر أحد أعمدة الفلسفة اليهودية إلى يومنا هذا، كما كتب في الأخلاق والحكمة أيضًا، وقد أشــارت الموســوعة اليهودية أن قصائد شــلومو تعكس علمه في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وعلم الفلك، حيث كان شــعره ميتافيزيقيًا وفلسفيًا وغامضًا، يثير العقل والفكر، أما قصائده الدينية ففيها النزعة الصوفية[١]، ولشلومو قصيدة تعليمية تشــرح اللغة العبرية، يُعتقَد أنها

---

(١) انظر الموســوعة اليهودية/ الجزء الســابع لمايــكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٣٢١.

مكونـــة من أربعمائة مقطـــع، وصلنا منهـــا ثمانية وثمانون مقطعًا فقط، ويعتبر المتحمســون من الأكاديميين العرب هذه القصيدة شبيهـة بـ «ألفية ابن مالك».

وعــن تأثر شــلومو بالشــعر العربـــي، تقول الموســوعة اليهودية: «موظفًا الصور والتعابير من الشــعر العربي، قام - شلومو - بدمجها بأسلوب مبتكر، مع استخدام استعارات ذهنية رائعة»، وتقول أيضًا: «من الواضح من شــعره الخاص بالطبيعة أنه تأثر بالثقافة الإســلامية السائدة في ذلك الوقت في إســبانيا»[1]، واختلــف المؤرخون في تحديــد الوقت الذي مات فيه شــلومو، فبحسب موشيه بن عزرا فقد مات في عمر الثلاثين، بينما ذكر ابن داود أنه مات عام ١٠٧٠م، عن عمر قارب الخمسين عامًا، ومن شعره الذي أورده كول[2]:

أيُّها الباحثونَ عن الحقيقةِ، أقبِلوا إلى قصائدي

---

(١) انظر الموســوعة اليهودية/ الجزء الســابع لمايــكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٣٢١.

(٢) انظــر كتاب «حلم القصيدة: الشــعر العبري من إســبانيا المســلمة والمســيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيــتر كول (طبعة مطابع جامعة برينســيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ٧٥.

وأنتَ أيُّها الجاهل، تعلَّم
ستعِّلمُكَ الحكمةَ الخفيةَ
وترشِدُكَ وسطَ كلِّ هذا الغموض
لا تقع ضحيةَ الكلماتِ الفارغةِ والعبث
ولكن تمسَّكْ بتلكَ القصائد وسوفَ تملكُ الحقيقةَ
لأنَّ القصيدةَ الضعيفةَ تقتلُ روحَ مؤلِفِها
وبينما ما يزال هو حيًا، تموتُ هيَ
بينما الجيدةُ في الذاكرةِ تستمر
مثلَ القمرِ الجديد، شهرًا بعد شهرٍ في سطوعِه

وفي غرناطةَ أيضًا ظهر الشاعر موشيه - أو موسى - بن عزرا، الذي ولد فيها لأسرة أرستقراطية، ولكن الظروف السياسية ليهود غرناطة لم تعد مستقرة بعد ثورة مسلميها على يوسف ابن الناغيد شلومو هاليفي، وقتله، فرحل موشيه منها إلى إسيانة، وتتلمذ على يدي ابن الغياط، وما لبثت الظروف في غرناطة أن تحسنت مرة أخرى، فعاد موشيه إليها، وتقلد فيها منصبًا شرفيًا مهمًا، وبقي هناك حتى دخول «المرابطين» إليها عام ١٠٩٠م، والذي ترتب

عليه مصادرة ثروة أهله ورحيل إخوته من غرناطة، ولكنه بقي حتى أُجبَر على الرحيل منهامع أسرته لأسباب غير معلومة، وأشار كول إلى أن سبب ترحيله ربما يكون تورط إحدى بنات عمه في فضيحة ما، فقضى موشيه حياته في الشمال متجولاً بين الممالك المسيحية، وعاش حياة الفقر إلى آخر عمره بعد أن كان من أسرة برجوازية غنية.

أشار كول إلى كَوْن موشيه بن عزرا الشاعرَ الثالث من حيث الأهمية، بعد يهوذا هاليفي وشلومو بن جابيرول، وقد تناول موشيه في شعره موضوعات كثيرة؛ منها التأملي، والحسي الشهواني، والطقسي التعبدي، والاحتفاء بالحياة، والحب، والخمريات، ووصف الطبيعة، ووصف الحياة الريفية، والصداقة، والشيخوخة، وتقلبات الحظ، والموت، والثقة بالله؛ ومن مميزات شعره توظيفه الزخرفة بشكل هادئ، واهتمامه بالجناس، قال عنه كول[1]:

---

(١) انظر كتاب «حلم القصيدة: الشعر العبري من إسبانيا المسلمة والمسيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسيتون، باللغة الإنجليزية)، ص. ١٢١ - ١٢٦.

«اجتذب ابن عزرا إلى أعماله ذلك الدمج العميق بين العناصر الأدبيــة العربية والعبريــة، وهو ما أهله ليُعتبَر الشــاعر المثــل للعصــر الذهــبي الإســباني - العبري»، وأشــارت الموســوعة اليهودية إلى تأثره بشــامويل هاليفي، واهتمامه بموســيقى الشعر وإيقاعه، وبراعته فيها، وإلى إتقانه الوزن العربي، وغيره من الخصائص الشــعرية للقصيدة العربية، فجــاء في الموســوعة[1]: «في شــعر ابن عــزرا الديني، توجد بعض التأثيرات - على صعيــد الصور والأفكار والتعابير - القادمة من شــعره غير الديني، والتي تأثرت بشــكل مباشر بالأدب العربي. العناصر الدينية اليهودية والأدبية العربية متشــابكة بشــكل فعال عنده»، ومن شدة براعته في الجناس اســتخدمه في نظم كتابٍ كامــل، هُو كتاب «ســفر هاناك»، حيــث قفى فيه موشــيه كلَّ جملة شــعرية في المقطعِ الواحد بنفس الكلمة بمعانٍ مختلفة؛ وقد كان موشيه فيلسوفًا وناقدًا ومؤرخًا أيضًا، ومن أشــهر كتبــه «مقالات الحديقة في معنى

(١) انظر الموســوعة اليهودية/ الجزء التاســع لمايــكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٦٧٤.

المجاز والحقيقة»، و «المحاضـرة والمذاكرة»، وهي مكتوبة بالعربية، وكان شلومو صديقًا مقربًا ليهوذا هاليفي، ساعده وشـجعه في بداية مسـيرته، ومن شـعره قصيـدة «تنهيدة الغزال»، والتي يقول في مطلعها[1]:

عجِّلوا إلى منازلِ الأحباب الذين الزمانُ
بعثَرهم وتركَهم خلفَهُ أطلالًا
ما كانَ في الماضي مساكنُ للغزلانِ الجميلةِ
ملاجئَ اليومَ للأسودِ والذئاب

ومن الواضح استخدام موشيه مطلعًا طلليًا، بدأ فيه بالدعوة إلى زيـارة آثار الأحباب، ثمّ مقارنة حالها الجديد بالقديم، وتبدُّل حيواناتها الأليفة الجميلة بالشرسـة، وهذه الطريقة في الاستهلال والترتيب عربية بامتياز، ولا حاجة لنا لذكر أمثلة عليها، وإلا لامتلأ الكتاب عن آخره بها.

وآخر شاعر يهودي أندلسي تحت حكم المسلمين - حيث بـدأت هجـرات اليهود نحـو الممالك المسـيحية، وضعفت

(١) انظـر كتاب «حلم القصيدة: الشـعر العبري من إسـبانيا المسـلمة والمسـيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيـتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسـيتون، باللغة الإنجليزية)، ص. ١٣٣.

الممالك المسلمة وبدأت بالسقوط منتصف القرن الثاني عشر، وبقيت غرناطة وحدها إلى منتصف القرن الخامس عشر- هو أهم شاعر عبري على الإطلاق كما يراه كول -وكثيرون غيره - وهو يهوذا هاليفي، الذي ولد في طليطلة - على الأرجح - عام ١٠٧٥م لأسرة غنية، اهتمت بتعليمه، حيث تلقى تعليمه بالعربية والعبرية، وقد أعجِبَ موشيه بن عزرا بشعره وهو في مقتبل العمر، فدعاه إلى غرناطة على اعتبارها مركزًا للأدب والثقافة، وهناك بدأت موهبته الشعرية تنتشر أكثر، وعندما حكم المرابطون الأندلس عام ١٠٩٠م، تدهورت أوضاع اليهود - كما يقول بيتر كول - فقضى هاليفي عشرين عامًا من حياته متجولًا، إلى أن استقر في الشمال المسيحي لأيبيريا، وتحديدًا في «قشتالة»، حيث عمل طبيبًا في محكمتها، وتاجرًا، وكان نشِطًا اجتماعيًا ومعروفًا لدى المجتمع اليهودي هناك، وفي عام ١١٠٨م، قُتِلَ سيده «سليمان بن فيرزاءول» - الذي كان مقربًا من الملك «ألفونسو السادس» - لأسباب سياسية، فقلق هاليفي على وضعه في المحكمة القشتالية، وبعد عدة أشهر من الحادثة

مات الملك ألفونسو، وبدأت أعمال عنف ضد اليهود بوفاته، فرحل هاليفي وتجول بين الممالك مع زوجته وابنته [1]، ورأى دمار المجتمعات اليهودية في ممالك أيبيريا، وقد دعا تدهور الأوضاع الأمنية والحضارية هاليفي لمغادرة أيبيريا، على الرغم من عدم تدهور وضعه المالي، إلا أنه لم يحس بالأمان، فقرر الرحيل إلى القدس عام ١١٤٠م، وزار في طريقه مصر.

وقد ركز الكثير من الباحثين الذين درسوا حياة هاليفي على رحلته إلى القدس باعتبارها رحلة دينية، وتجاهلوا أو قللوا من شأن الظروف السياسية التي عانى منها يهود أيبيريا، وجعلتهم يبحثون عن أي مكان آخر يعيشون فيه، فالموسوعة اليهودية مثلًا اعتبرت رحلة هاليفي إلى القدس -أو كما تسميها «أرض إسرائيل»- رحلة مقدسة، ومناسبة لفلسفة هاليفي التي تخلص إلى أن المكان الأمثل لتواجد اليهود هو «أرضهم»[2]، لقد كان إنتاج هاليفي للشعر

---

(١) أشارت الموسوعة اليهودية أن هاليفي رحل من قشتالة قبل موت الملك.

(٢) انظر الموسوعة اليهودية/ الجزء الحادي عشر لمايكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٤٩٣.

الديني والطقسي غزيرًا بالفعل، وكانت فلسفته الدينية ترى تفوق الديانة اليهودية على غيرها، وهو ما صاغه في كتابه «الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل» أو «الكوزاري»، والذي يُعتبَر أهم كتب تلك الفترة، وهو كتاب جاء لإثبات تفوق اليهودية على المسيحية والإسلام، ولم يستخدم هاليفي فيه حججًا منطقية كما فعل موسى بن ميمون، على اعتبار أن للإله منطق مختلف عن البشر[1]، ولكن وبالرغم من ذلك التوجه الديني في قصائده وكتبه، إلا أن تصويرَ دافعِ رحلتِه إلى القدس على أنه ديني يعتريه الغموض، ويحتاج إلى توضيح؛ لماذا لم يهاجر هاليفي إلى القدس قبل وفاة سيده ابن فيرزاءول؟ ولماذا قضى عشرين عامًا متجولًا قبل أن يذهب إلى القدس؟ هل ملك هاليفي كلَ الخيارات المتاحة، فاختار القدس؟ أم لم تترك له الظروف المتاحة غيرها؟ لم تكن رحلة هاليفي إلى القدس دينية، بل كانت بحثًا عن مكان آمن يقضي بقية عمره فيه، وربما شد بريقُ القدس الديني هاليفي، وبما أنه مهاجر في كل أحواله، أعجبه أن يكون مهاجرًا لقضية

(١) انظر كتاب زمن وحياة يهوذا هاليفي لرودلف كايسر (طبعة المكتبة الفلسفية، مترجم إلى الإنجليزية)، ص ١٣٦.

دينيـــة، ولكنها في الحقيقة لم تكن قضيته؛ مات هاليفي عام ١١٤١م، وكان قد خرج من الإسكندرية في مصر نحو القدس، ومن غير المعلوم إذا كان وصلها أم لا، فلم يُسَمع عنه شـيء بعد خروجه.

أما عن شعره، فقد اعتبره كول سيد الوزن والشعر العبري الأول[١]، وأطلق عليه موشـيه بن عـزرا لقب «غواص اللآلئ وسـيد الجواهر الأكثر ندرة وتألقًا في الغناء»[٢]، وبالإضافة للقصائد الدينية الكثيرة التي نظمها هاليفي، فقد كتب أيضًا في كل المواضيـع الأندلسـية، مثل: المـدح والصداقة والحب والمراثـي على الرغـم من محاولاته أواخر سـنين حياته من تقليل الأثر العربي في قصائده،جاء في الموسـوعة اليهودية: «اتبـع هاليفي تقاليـد زمانــه في قصائده والتي مـن الممكن اعتبارها (شـكلية)، مثل أغلب قصائده في الحب أوالعربدة

---

(١) انظـر كتاب «حلم القصيدة: الشـعر العبري من إسـبانيا المسـلمة والمسـيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيـتر كول (طبعة مطابع جامعة برينسـيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ١٤٣.

(٢) انظر كتاب زمن وحياة يهوذا هاليفي لرودلف كايسر (طبعة المكتبة الفلسفية، مترجم إلى الإنجليزية)، ص ١٢٠.

والــتي من الممكن أن تكون -أحيانًا- ترجمات حرفية تقريبًا مــن العربية، ولكن علــى الرغم من ذلك كان لــه نمط فريد وشــخصي»[1]، وقد اهتم هاليفي بالقــوافي الداخلية في جمله الشــعرية في الكثير من الأحيان، ومن شعره قصيدة «تفاحة أخرى»، والتي يقول فيها[2]:

لقد أسرْتِني، ظبيةَ السرورِ، بجمالِك
وفي ذلك الأسرِ تعاملتي معي بلا رحمة
منذ أنْ افترقنا ذلكَ اليوم
لم أرَ شيئًا يماثلُ جمالَك
وكثيرًا ما كنتُ ألتفتُ إلى تفاحةٍ لتسعفَني
والتي عبيرُها يستدعي أنفاسَكِ مثلَ شجرِ المر
شكلُها، صدرُكِ، ولونُها المتوردُ
الذي يركضُ في خدودِك عندما تخجلين

---

(١) انظر الموســوعة اليهودية/ الجزء الحادي عشــر لمايــكل بيرينباوم وفريد سكولنيك (طبعة ماكميلان ريفيرينس)، ص ٤٩٧.

(٢) انظــر كتاب «حلم القصيدة: الشــعر العبري من إســبانيا المسـلمة والمســيحية ٩٥٠ - ١٤٩٢م لبيــتر كول (طبعة مطابع جامعة برينســيتون، باللغة الإنجليزية)، ص ١٤٦.

رؤية الأدباء والمؤرخين اليهود للشعر العربي في الأندلس

بدأ إطراء اليهود على الشعر العربي الأندلسي منذ زمان الأندلس نفسها، وهو مستمر حتى يومنا هذا،قام سيد فرج راشد في كتابه «القدس عربية إسلامية» بنقل رأي يهوذا حريزي -وهو حاخام وشاعر ومترجم يهودي عاش في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في طليطلة- الذي دونه في المقامة الثامنة عشرة من كتابه «تحكموني»، حيث قال: «اعلموا أن الشعر الرائع الذي يمتلئ بالنفائس والروائع هو من ممتلكات العرب في البداية، واستطاعوا رأب كل صدع فيه وأن يزنوه بموازين عادلة وأن يضعوه في مكانته، بل وأثروا به على غيرهم فنجدهم قد بنوا أساقفه وشذّبوا قصوره وأقاموا مصاريعه ولهم اليد الطولى بين شعراء الدنيا.

فنجدهم أول من يتحدثون إذا ما دُعي الشعراء للحديث، وعلى الرغم أن لكل أمة من ينظم لها الشعر ويعمل في صنعة الشعر، إلا أن شعرهم لا يمثل شيئًا وكلامهم نوع من العبث الذي لا يجدي بالمقارنة بشعراء أبناء الإسماعيليين - ويعني

العرب - حيث لا نجد الشعر الجميل اللفظ، الجزل العبارة مثل الشمس في إشراقها، صحيح المخرج كالفجر إلا لدى العرب، أما الباقون فلا يعتبرون إلى جانبهم شيئًا»[1]، ونقل محمد فتحي البغدادي في بحثه المعنون بـ «المؤثرات العربية في شعر يهود الأندلس» رأيَ موشيه بن عزرا الذي أورده في كتابه «المحاضرة والمذاكرة»، والذي قال فيه: «إن الشعر عند العرب طبع، ولدى غيرهم تطبع، فالعرب منحهم الله البيان وهيأهم للعناية بفصاحة اللسان، وبهذا فخر بعضهم قائلًا: لسان العرب بين الألسنة كزمن الربيع بين الأزمنة»[2].

أما حديثًا، فقد تناولت الكثير من الأبحاث والكتب علاقة الشعر العبري بالعربي في الأندلس؛ درس الأكاديمي اليهودي «حاييم شيرمان» في كتابه «تاريخ الشعر العبري في إسبانيا المسلمة» أثرَ المدرسة الأندلسية على الشعر العبري

(١) انظر كتاب القدس عربية إسلامية لسيد فرج راشد (طبعة دار المريخ)، ص ١٤٦.

(٢) انظر بحث «المؤثرات العربية في شعر يهود الأندلس» لمحمد فتحي البغدادي(بحث مقدم في ندوة اللغات والترجمة: الواقع والمأمول)، ص ٢١.

بين القرنين العاشـر والثاني عشـر، ولم يمل شيرمان طوال كتابه مـن الإطراء على المرحلة التي وصلها الشـعر العبري في ذلـك الوقت، حتى أنه وصف تلك الفترة بـ «ذات الطبيعة المعجزة»[1]، وقد وصفَت هذه المرحلة من حياة يهود الأندلس مرارًا وتكـرارًا بـ «العصر الذهبي»، بـل إن مصطلح العصر الذهبي أصبـح مرافقًا لهـذه الفـترة، ودالًا عليها، وأصبح نفسـه محل دراسـة، فـيرى الأكاديمي والحـبر اليهودي «إسمار شـورش» أن أول من استخدم هذا المصطلح هو «فرانز ديليتش»، وهو عالم لاهوت ألماني مختص بالدراسات العبرية واليهودية[2]، أما المؤرخ اليهودي النمسـاوي إلياهو أشتور فقد عنـون الفصلَ الأول من الجزء الثالـث من كتابه «يهود إسبانيا المسلمة» بعنوان «العصر الذهبي للأدب العبري»[3]..

---

(١) انظر كتاب «تاريخ الشعر العبري في إسبانيا المسلمة» لحاييم شيرمان (طبعة ماغنيس، باللغة العبرية)، ص ١٥.

(٢) انظر ورقة بحثية بعنوان «أسـطورة تفوق السفرديم» لإسمار شورش (منشورة في كتاب معهد ليوبارك السنوي، باللغة الإنجليزية)، ص ٦١.

(٣) انظر كتاب «يهود إسـبانيا المسـلمة»/ الجزء الثالث لإلياهو أشتور (طبعة جمعية النشر اليهودي، باللغة الإنجليزية).

ويقول رودلف كايسر: «في الشعر والفلسفة، في الطب وقواعد اللغة، أثرى العرب أوروبا في العصور الوسطى أكثر من أي أمة أخرى»[1].

نتائج دراسة الحالة

انقلب حال الشعر العبري باختلاط ناظميه بشعراء العرب في الأندلس، فبعد أن كان نظام وزنه غير واضح عبر تاريخه كله، أصبح موزونًا على نظام التفعيلة العربي، كما كسر الشعر العبري انحسار مواضيعه بالترانيم الدينية وشعر البيوت الطقسي، ليشمل مواضيع جديدة، مثل؛ الحكمة والأخلاق والشعر التعليمي، ووصف الطبيعة وذكر مُتَع الحياة ووصف الحياة الريفية والتغني برونق الشباب، والخمريات والصداقة، والمدح والحماسة والرثاء، والتصوف والتأمل، والغزل والاشتهاء الحسي، ووصف العزلة والتشائم والسخرية من المجتمع، والشيخوخة

---

(١) انظر كتاب زمن وحياة يهوذا هاليفي لرودلف كايسر (طبعة المكتبة الفلسفية، مترجم إلى الإنجليزية)، ص ٤٥.

وتقلبات الحظ والموت، لم يكن ما حصل للشعر العبري تطورًا طبيعيًـا وإنسـانيًا للموضوعات، بـل كان نتيجةً حضارية، وأثرًا للاسـتقرار السياسي والاقتصادي للمجتمع اليهودي في الأندلس، وبسبب الاختلاط بعرب الأندلس، وهو ما شهد به المؤرخـين غير العرب، ومنهم اليهود، مثل؛ يهوذا حريزي وموشـيه بن عزرا وحاييم شـيرمان وإلياهو أشتور ورودلف كايسـر، وحتى الأكثرهم تحيزًا، مثل الموسوعة اليهودية، حتـى أصبح يطلق على هذه الفترة من تاريخ الشـعر العبري «العصر الذهبي».

لم يكـن الأثر العربي في الشـعر العـبري مرتبطًا بالوزن والموضوعات فقط، بل وصل إلى بنية القصيدة، حيث أصبحت القصائد العبرية الأندلسـية ذات مقدمة، ومهتمة بالانتقال والوحدة والصورة البلاغية والمحتوى، كما استخدم الشعراء العبريون ألفاظًا ترد كثيرًا في الشعر العربي، مثل «الظبي»، واسـتعانوا بصورٍ ألِفها الشـعر العربي لقـرون، بل وكرروا تفاصيـلَ خاصة ببعض الشـعراء أو بعـض القصائد، مثل؛ منادمـة صديقٍ من خيال الشـاعر، وخطـاب الأنثى بصيغة

الذكـــر، واســتبكاء الطيور، كما ظهــرت الثقافة العربية في تفاصيــل أخرى، مثل؛ ذكــر أدوات العــود والقانون، وهي أدوات موســيقية شرقية، ومن الشــعراء العبريين من كتب شعرًا بالعربية أيضًا، كما اختلفت أيضًا علاقة الشعر بالسلطة في المجتمع اليهودي، حيث أصبح الوجهاء يحيطون أنفسهم بالشــعراء على طريقة ذوي النفوذ من العرب، مما استدعى ظهور أدب الكدية، ثم تعدى تطور الشــعر العبري العناصرَ الرئيسية والفرعية في القصيدة، ووصل إلى الإبداع الجمالي، حيــث ظهرت الموشــحات، واســتخدم الشــعراء العبريون الجناس والقوافي الداخلية.

الخلاصة

أتى هذا الكتاب لاستقراء الفكر اليهودي، ومحاولة فهم ملامحه الرئيسية، فقمنا من أجل ذلك بتحليل عميق لنصوص من الموســوعة اليهودية، ووصلنا إلى أن الفكر اليهودي خرج من إطاره الديــني، وأصبح موجّهًا سياســيًا لخدمة الحركة الصهيونية، وأنــه يســتخدم التاريخ بشــكل مشبوه ومتحيز

لإثبات حق وهمي لليهود في فلسطين، حيث يصورهم طوال الوقت بأنهم مظلومون ومضطهدون، ومجبورون على العزلة من الآخرين، وأن خلاصهم هو تجمعهم معًا في فلسطين.

ومن أجل اختبار فرضية انعزال اليهود، قمنا بدراسة حالة للمجتمع الشعري اليهودي في الأندلس المسلمة، ولم نصل إلى ما يثبت هذه الفرضية، بل وجدنا أن الشعر العبري قد ذاب بشكل كامل في الشعر العربي، وسلّم نفسه كمادة خام طوعها الشعر العربي، وأنتج منها «العصر الذهبي» للقصيدة العبرية.

إن المكتبة العربية بحاجة إلى المزيد من الدراسات التي تناقش فكرة انعزال المجتمعات اليهودية، والدراسات التي تتناول الأدب العبري، لأن العبرية هي اللغة الرسمية للدولة الصهيونية المحتلة، وأدبها يحملٍ بين سطوره مفاهيم المجتمع المحتل، وما لا يقال صراحةً فيه، فدراسة الشعر العبري هو جزء من الصراع الطويل الدائر في هذه المنطقة منذ القدم، وإنّه لمن العبث، بل من السفاهة التعامل مع عدو لا نعرف فكره وتاريخه بالتفصيل، حتى لو كان تاريخًا مصطنعًا.

المراجع

المراجع العربية

• القرآن الكريم.

الكتـــاب المقدس. (١٩٩٤م). القاهرة: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

• الأندلســي، ابن حــزم. (١٩٨٧م). رســائل ابن حزم الأندلسي. (تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

• الأندلسي، علي بن موسى بن سعيد المغربي. (١٩٥٥م). المُغــرب في حلــى المغرب، الطبعــة الثالثة (تحقيق شــوقي ضيف). القاهرة: دار المعارف.

• البغــدادي، محمد فتحي. (٢٠٠٠م). المؤثرات العربية في شعر يهود الأندلس. دراســة في ندوة اللغات والترجمة: الواقع والمأمول، جامعة الإمام محمد بن ســعود الإسلامية، الرياض السعودية.

• التلمسـاني، أحمد بن محمد المقـري. (١٩٦٨م). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (تحقيق إحسـان عباس). بيروت: دار صادر.

• الجزريّ، ابن الأثير. (١٩٨٧م). الكامل في التّاريخ (تحقيق أبو الفداء عبدالله القاضي). بيروت: دار الكتب العلمية.

• الحفـني، عبد المنعـم. (١٩٨٠م). الموسـوعة النقدية للفلسفة اليهودية. القاهرة: مكتبة مدبولي.

• حمدان، جمال. (٢٠١٨م). اليهود أنثروبولوجيًّا، الطبعة الثانية. القاهرة: دار المعارف.

• الخالدي، خالـد يونس عبد العزيز. (١٩٩٩م). اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (٩٢-٨٩٧ هـ = ٧١١ - ١٤٩٢م). أطروحة دكتوراه. جامعة بغداد، بغداد، العراق.

• الدمشقي، ابن كثير. (١٩٩٠م) البداية والنهاية (ضبط وتصحيح وشرح هيئة بإشراف الناشر). بيروت: مكتبة دار المعارف.

• ديورانت، ويـل، وديورانت، ايريل. (١٩٨٨م). قصة الحضارة (تقديم محيي الديـن صابر، وترجمة زكي نجيب

محمـود ومحمد بدران). بيروت: دارالجيل للطبع والنشـر والتوزيع.

• راشد، سـيد فرج. (١٩٨٦م). القدس عربية إسلامية. الرياض: دار المريخ للنشر.

• الطائـي، أبو تمام حبيب بـن أوس. (١٩٩٨م). ديوان الحماسـة: برواية أبي منصور موهـوب بن أحمد بن محمد ابن الخضر الجواليقي (شـرح وتعليق أحمد حسـن بسـج). بيروت: دار الكتب العلمية.

• الطبري، أبو جعفر. (١٩٦٧م). تاريخ الطبري: تاريخ الرسـل والملوك، الطبعـة الثانية (تحقيق محمـد أبو الفضل إبراهيم). القاهرة: دار المعارف.

• عبـد المجيـد، محمـد بحـر. (١٩٧٠م). اليهود في الأندلس. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

• عميره، مهند.(٢٠٢٠م). صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارة والثقافة. القاهرة: دار المعارف.

• لوبون، غوستاف. (٢٠١٢م). حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر). القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

• المسـيري، عبد الوهاب. (١٩٩٩م). موسـوعة اليهود واليهودية والصهيونية. القاهرة: دار الشروق.

• الناصري، أحمد بن خالد. (١٩٩٧م). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. (تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الطبعة الثالثة). الدار البيضاء: دار الكتاب.

المراجع غير العربية

Albright, W.F. (1941). New light on the early history of Phoenician colonization. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 83(1), 14-22.

Ashtor, E. (1979). The Jews of Moslem Spain (Translated to English by Aaron Klein & Jenny Machlowitz Klein). Philadelphia: The Jewish Publication Society.

Bermúdez de Castro, J. M., Martinón-Torres, M., Carbonell, E., Sarmiento, S., Rosas, A., Van der Made, J., & Lozano, M. (2004). The Atapuerca sites and their contribution to the knowledge

of human evolution in Europe. Evolutionary Anthropology: Issues, News, and Reviews, 13(1), 25-41.

Busk, M. M. (1833). The History of Spain and Portugal from BC 1000 to AD 1814; Published Under the Superintendence of the Society for the Diffusion of Useful Knowledge. London: Baldwin and Cradock, and Paternoster-Row.

Carmi, T. (1981). The Penguin book of Hebrew verse. New York: Viking press.

Christian, D., Brown, C.S., & Benjamin, C. (2014). Big history: between nothing and everything. New York: McGraw Hill Education.

Cole, P. (2009). The dream of the poem: Hebrew poetry from Muslim and Christian Spain 950-1492. New Jersey: Princeton University Press.

Dick, R. (1883). Hebrew Poetry: Sunday afternoon lectures before the Greensbord law

school. Greenford: C.F. Thomas book and Job printer.

Dubnov, S. (1973). History of the Jews from the Roman Empire to the early medieval period. New York: Thomas Yoseloff, Inc.

Freund, R. (2012).Digging through History: Archaeology and Religion from Atlantis to the Holocaust. Maryland: Rowman & Littlefield Publishers.

Goitein, S. D. (1983). A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza. Los Angeles & London: University of California Press.

Herder, J.G. (1833). The spirit of the Hebrew poetry (Translated to English by James Marsh). Burlington: Edward Smith.

Isaacs, E. (1918). The metrical basis of Hebrew poetry. The American Journal of Semitic Languages and Literatures, 35(1), 20-54.

Kayser, R. (1949). The life and time of Jehudah Halevi (Translated from German by Frank Gaynor). New York: Philosophical Library.

Lindo, E. H. (1848). The history of the Jews of Spain and Portugal, from the earliest times to their final expulsion from those kingdoms, and their subsequent dispersion with complete translations of all the laws made respecting them during their long establishment in the Iberian Peninsula. London: Longman, Browm, Green & Longmans.

Schorsch, I. (1989). The Myth of Sephardic Supremacy. The Leo Baeck Institute Yearbook, 34(1), 47-66.

Skolnik, Fred & Michael Berenbaum. (2007). Encyclopaedia Judaica. New York: Macmillan Reference 2007.

Vatican.va. (1965). Declaration on the relation of the church to non-christian relegions

nostra aetate. [online] Available at: http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vatii_decl_19651028_nostra-aetate_en.html [Accessed 15 Aug. 2019].

שירמן, חי. (١٩٩٥). תולדות השירה העברית בספרד המוסלמית (تاريخ الشعر العبري في إسبانيا المسلمة). יְרוּשָׁלַיִם: הוצאת הספרים ע"ש י"ל מאגנס.

المحتويات



يهوذا هاليفي هو أحد أهم الشعراء اليهود على الإطلاق، عاش في عدة مدن أندلسية - تحت الحكم الإسلامي - في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. لماذا يوجد تمثال هاليفي في أحد متاحف مدينة قيسارية الفلسطينية المحتلة؟ كيف تبرر الدولة الصهيونية علاقتها به؟

ما الموسوعة اليهودية Encyclopedia judaica؟

بماذا تختلف عن سابقاتها من الموسوعات؟ ما ملامح الفكر اليهودي التي تحاول نصوصها تقديمها؟

هل عاش اليهود - في مختلف الأماكن والأزمنة - كما تصور الموسوعة؟

من أعاد إحياء اللغة العبرية؟ وما علاقة العرب بذلك؟

من مناحم بن سروق؟

ماذا فعل دوناش بن لبراط بالشعر العبري؟

إلى أى مدى تأثر الشعر العبري في الأندلس بالشعر العربي؟

يحاول الكتاب الإجابة عن الأسئلة السابقة، وغيرها مما لا يتسع ذكره هنا عن الفكر اليهودي المعاصر.

ويدرس أحوال شعراء اليهود في الأندلس، وعلاقاتهم الشخصية والأدبية بشعراء العرب.







